

الإمام عزّان بن قيس

١٨٦٨ - ١٨٧١

جوانب من التاريخ العربي الإسلامي
في ظل الهيمنة الأتورية

الله الملك الديار وكان تمامه يوم الأربعاء
والثامن من شهر رجب شعبات المعظم
من شهر سنة سبع سنين وثمانين سنة
وما نبي سنة وثلث سنة من الهجرة المحمديّة
عزها جميعاً أفضل الصلوة والسلام
في عصر سيدنا امام المسلمين الثقة العدل
الزاهد الربيع الوفي الصفي الرضي المضي الوفي
عزّان بن قيس بن عزّان بن قيس بن الإمام
بن أحمد أبو سعيد بن
لته ونصره على عياله آمين

١٩٤

الإمام عزّان بن قيس

١٨٦٨ - ١٨٧١

تأليفه

جوانب من التاريخ العربي الإسلامي
في ظل الهيمنة الأيوبية

الإمام عزّان بن قيس

١٨٦٨ - ١٨٧١

جوانب من التاريخ العربي الإسلامي
في ظل الهيمنة الأيوبية

أحمد عبيدي

الإمام عزّان بن قيس

١٨٦٨ - ١٨٧١

جوانب من التاريخ العربي الإسلامي
في ظل الهيمنة الأروبية



مقوق الطبع محفوظه
لدار الحديث

الطبعة الثانية
١٩٨٤

الإهداء :
إلى ذكرى والدتي منيرة

ووالدي يوسف

دار الحدائق للطباعة والنشر والتوزيع
ش.م.م.
ص.ب. : ٥٦٣٦ / ١٤ - بيروت. لبنان

المقدمة

الباب الأول:

- الدخول إلى عمان

الباب الثاني:

- باب البيعة

الباب الثالث:

- الإمام القوي الضعيف

الباب الرابع:

- باب المركز والأطراف والخارج

الباب الخامس:

- باب رد الريح

الباب السادس:

- باب الخروج من عمان

المراجع العربية

المراجع الأجنبية

٧

١١

٥٥

٧٣

٩٩

١٤٢

١٥٧

١٧٧

١٨١

مقدمة الطبعة الثانية

تشكل تجربة الامام عزان بن قيس تجربة متفردة ضمن الخبرات الاباضية كما تشكل الاباضية عموماً ، في الفكر والتطبيق ، تراكمها من التجارب ضمن المجرى الاسلامي العام . ولا يغيب عن الناظر بالطبع أن هناك اهتماماً متزايداً بدراسة تراث المسلمين الممتد طوال الأربعة عشر قرناً الماضية ، كما ان هناك انبعاثاً في ديار الاسلام نفسها لاعادة دراسة التراث الذي تناقلته الاجيال . ولا يزال يعيش بين جنباتها حياً ومتصلاً ومطالاً على المستقبل .

وحيث أن العضلات التي تعاني منها الأمة لا تزال قائمة ، وحيث أن كثيراً مما يتوجب انجازه لا يزال ينتظر الجهد والدم ، فلا ريب أن الاطلاع والمزيد من الدرس والتعمق في الماضي ودروسه دون الإنقطاع عن الحاضر ومتغيراته الملموسة هو أمر ضروري وملح خاصة لأنه يتم باستشراف المستقبل وقصد تعبيد طريق الوصول اليه . ولا بد لأبناء هذه البقعة من العالم من استجماع الجهد واستحضار كل الخبرات واستعادة منجزات انسانها بكاملها . ولم يعد قبولاً أن تدرس القضايا الاسلامية ودروس القرون الغنية من نفس المنطلقات المذهبية الضيقة التي تحجم الواصل اليها من القدماء وتحد مما يمدوننا به من خبرات وتجزيء ما يمكن أن يضحى نهراً دفاقاً مصطخب

الأمواج يأخذنا معه إلى موقع متقدم من المواقع التي تُعَاشِرُ قرننا وتستبقه إلى القرن القادم .

أولاً نستحق ذلك ، أو تنقصنا القدرة على تحقيق الأمر ؟

إن أي شعب من شعوب العالم يستحق ذلك ويمكنه تحقيقه ، فهذا من بديهيات القرن الذي نعيش ، فما بالك بأمة أسهمت في مجرى الانجاز الانساني منذ بواكيره الأولى ، بل هي التي دشنت انتقال الانسان الى عالم التحضر والتمدن .

* * *

يمتلك الاباضية فهما تنظيمياً دقيقاً لانتقال الدعوة من الضعف إلى القوة ومن الحالة الجنينية والطفولة الى الفتوة واليفاع ومن حالة الكتمان إلى حالة الظهور . يقول الدرجيني في طبقاته : « الكتمان ملازمة الأمر سراً بلا امام ، وولاية الدفاع : أن يدهم أهل الكتمان بداهمة ، والظهور : تولية امام عدل يسند اليه الأمور » ، والدرجيني من مؤرخي الاباضية ومن رجالات القرن السابع الهجري . وقبله بقرنين كتب أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر واصفاً المدرسة السرية التي أقامها أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة في بداية القرن الثاني الهجري لتخريج دعاة الأباضية فقال « فسار عبد الرحمن بن رستم الى أبي عبيدة ، فالتقى مع النفر الذي ذكرنا فصافحهم أبو عبيدة وسألهم عن أحوالهم ومن أين أقبلوا فأخبروه انهم من أهل المغرب ، وانهم أرادوا تعليم العلم ، فأجابهم الى ذلك ، ومكثوا عنده سنين عدة . وكان الشيخ أبو عبيدة مستخفياً متخوفاً من بعض أمراء البصرة وأدخلهم سراً وجعل فيه سلسلة ، فصار يعمل القفاف فمتى رأى شخصاً حرك السلسلة فيسكتون . فإذا انصرف حركها ، فيأخذون في عزمهم » .

كل ذلك والمدرسة في البصرة على مقربة من مركز الدولة وعاصمة

قوتها ، فأى رقي تنظيمي وأي اصرار على رؤية البعيد والسير حثيثاً دونما تسرع ، وبدأب ولكن دونما ابطاء ، لنيل المطلوب وتحقيق المبدأ .

وانظر إلى مبدأ الهجران الذي يمارسه الاباضية أزاء الفرد الذي يخالف الجماعة ، فيلزم بالعودة اليها بقوة الرادع المعنوي ، قال الدرجيني : « الهجران والابعاد ألفاظ مترادف على معنى واحد وذلك متى أجرم من أهل الطريق جرماً ، أو ظهرت عليه خزية أو أتى بنقيصة في قول أو عمل أو تضييع ، فانه يهاجره كل أهل الصلاح فلا يكلم ولا يحضر جماعة ولا يؤم ولا يؤاكل ، ولا يجالس ، وكانت خطة حالت بينه وبين أهل الخير ، فان تاب واستغفر قبل منه ورجع الى الجماعة ، وزال عنه شين ذلك الوسم ، وكان بقاؤه في وحشة الهجران بقدر عظم الجرم وصغره ، وتوبة المجرم واصراره ، فمنهم من يتوب فيرجع في الحال ومنهم من يبقى ساعة أو ساعتين أو يوماً أو يومين أو أياماً أو أعواماً أو عمره ان عظم الجرم وداوم المجرم على الاصرار ، وترك الاستغفار » .

أولاً تحتاج الأمة بمجموعها إلى اشاعة هذا الكابح الاجتماعي بين جنباتها لتضمن انضواء أفرادها ضمن أهدافها وطموحاتها وسط بحر القرن المتلاطم ؟

* * *

وعمان كان تراثها في اغناء فترات الظهور بمثل ما أغنى اباضية شمال افريقية فترات الكتمان . وعزان بن قيس هو إمام ظهور ، وكل ما يجري بعمان مهم إذا ما حام التفكير حول أمور عديدة ليس أفلها : حدود العرب الشرقية ، دورهم في المحيط الهندي والعلاقات مع أفريقيا . ولم تخلو تجربة عزان بن قيس من تلمس بعض هذه الأمور ، ولكن قصر الفترة حالت بينه وبين أن يمد تجربته في هذه الاتجاهات .

ولكن عزان كان مهتماً بالداخل أساساً وتجربته تُقرأ ضمن رؤية محاولة الشعوب العربية والاسلامية أن ترد على تحديات الداخل ، ضمن موازين مالت بجلاء لصالح أوروبا ، وفي عصر يتغير بسرعة . وبالرغم من ان امامة عزان تشكل تجربة جديرة بأن تنضم لدراسات موضوعات الفكر الإسلامي الحديث الذي يبدأ بالوهابية والسنوسية ويعبر الى الهند ثم إلى السودان مع المهدية ليلتقي بالافغاني ومحمد عبده ويقترب من بواكير الحركات الاسلامية في القرن العشرين ، فان تلك الدراسات لا تعني بتتبع تجربته أو تجربة الامام الخروصي من بعده ، واعتقد ان في ذلك نقصاً لا بد من استكماله .

ويبقى هذا الكتاب يحاول أن يستعرض جوانباً من تجربة هامة ، وأرجو أن يستكمل بمجهودات أخرى على طريق التعلم من السابقين علنا نصنع شيئاً يفيد اللاحقين .

بيروت ٢٢ حزيران ١٩٨٤
أحمد عبيدلي

مقدمة

لقد كتب الكثير عن جوانب التاريخ العربي الاسلامي في بقاعه المختلفة ، ولكن الكثير منه ما زال لم يكتب ، ولقد ركزت الأضواء كثيراً على مناطق الجزيرة العربية ، وعلى نواحي تاريخها المتنوعة ، ولكن بقيت نواح لا تزال بحاجة لمزيد من الأضواء . ولجزيرة العرب موقعها المتميز والمتفرد في الوجدان العربي ، وفي الحاضر الراهن . فبين جنباتها ولدت القبائل العربية وتفرعت ، ومع ازدهارها ابان العصور السابقة ازدهر العرب وبنوا الحضارات القديمة ، ومع موجات الجفاف التي شهدتها أراضيها المترامية تصلبوا وانغرسوا بين الكثبان وفي الواحات وعلى امتداد الصحارى اللامتناهية ، ومع مجيء الدعوة الاسلامية تعمق تاريخهم وطبع حيزاً مكانياً وزمانياً واسعاً ضمن التاريخ الإنساني . وبمجيء العصور الحديثة وباكتشاف النفط أضيف إلى تلك الأبعاد بعد جديد لم يكن من الممكن تجاهله وسط الصراعات التي عرفها هذا الجزء من العالم .

وبمعنى ما من المعاني ، فكل ما هو إنساني هو جديد دوماً ، وأن قدّم ، وهو ذو إلحاح معاصر وإن أوغل في الزمن ، طالما احتاج إنسان ما ، في عصر ما ، الى إستعادة جوانب من تجربة من سبقه ، منقباً فيها ومقلباً في ركامها ، فلربما عثر على ما يجنبه تكرار تجربة ما ، أو تفادي منعرج معين ، أو اكتشاف مصاعب درب من الدروب المتعددة . وقديماً وقبل ما يقارب الخمسة آلاف عام قدم بعض سكان جزيرة العرب واستوطنوا جزيرة

صغيرة قبالة ساحل أبي ظبي وهي جزيرة أم النار . وأقام القاطنون الجدد قرية صغيرة لا تزال باقية كما كانت تقريباً ، وعلى مقربة منها بنوا أكاماً حجرية لدفن موتاهم . وحرص الأحياء منهم في ذلك الحين على أن يرفقوا كل من يموت منهم بأفضل ما لديه من الآنية الفخارية ، تأكيداً منهم على أن يحصل هذا المنتقل من دار الحياة الى دار الموت على أجود ما يمكن تقديمه من الإمكانيات لكي يستخدمها حينما يبعث من جديد . وتمر السنون ، وتحتضن تلك المدافن ولدة خمسة آلاف عام تلك التحف الفنية النادرة جنباً الى جنب مع الهياكل العظمية لأبناء القرية المؤسسون والذين صنعوا بأيديهم تلك الآنية الفخارية من طين الأرض وأنفقوا عليها خبرة وجهداً وأسألوها عليها عرقاً مدراراً .

وحافظت الأجيال تباعاً على تقليد مشابه ، ولكنه يتغير أسلوباً وشكلاً مع تطور العهود وتقدم الأزمنة . فمن الآنية والأدوات الى النقوش ، ومن النقوش والنصوص المتفرقة ، الى القصائد والمعلقات ومنها الى المؤلفات وكتب التاريخ الموسعة . وكانوا يسجلون في ذلك أفضل الدروس وزبدة التجارب ويقدمونها لمن سيتلوهم من البشر . وهكذا مع تواتر القرون تزداد ذخيرتنا بما نملك من تركة الأقدمين .

وإذا ما تمكن هذا الكتاب من أن يعرض أحداث تلك الفترة التي مر بها قطر من أقطار جزيرة العرب وهو عمان بما يمكن من الدقة ، وإذا ما استثار شهية آخرين للتصحيح وإبراز الأفضل ، فسيكون قد حقق الهدف وزاد . ولربما كان خير ما تحتّم به مقدمة هو إيراد مقتطف أوردته مؤرخ عماني ضرير قبل ما يقارب السبعين عاماً وهو عبدالله السالمي في تحفة الأعيان ، حيث قال :

« إنه لا يخفى على عاقل أن علم التاريخ مما يعين على الاقتداء بالصلحين ويرشد على طريقة المتقين ، لأن فيه ذكر

أخبار من مضى من صالح وطالح ، فإذا سمع العاقل أخبار الصالحين اشتاقت نفسه الى اقتفاء آثارهم ، وإذا سمع أخبار الطالحين أشفقت نفسه أن يكون من جملتهم ، فتراه بذلك يقتفي آثار من صلح ، ويتجنب أحوال من طلع ، فيجاهد نفسه حق الجهاد ، فيستحق بذلك من الله العون والتوفيق لقوله عز من قال (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) » .

والله الموفق ،

أيار ١٩٨٢

أحمد عبيدي

الباب الأول

باب الدخول الى عمان

« من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان »

حديث شريف

جهينة الأخبار

في تاريخ زنجبار - المقدمة

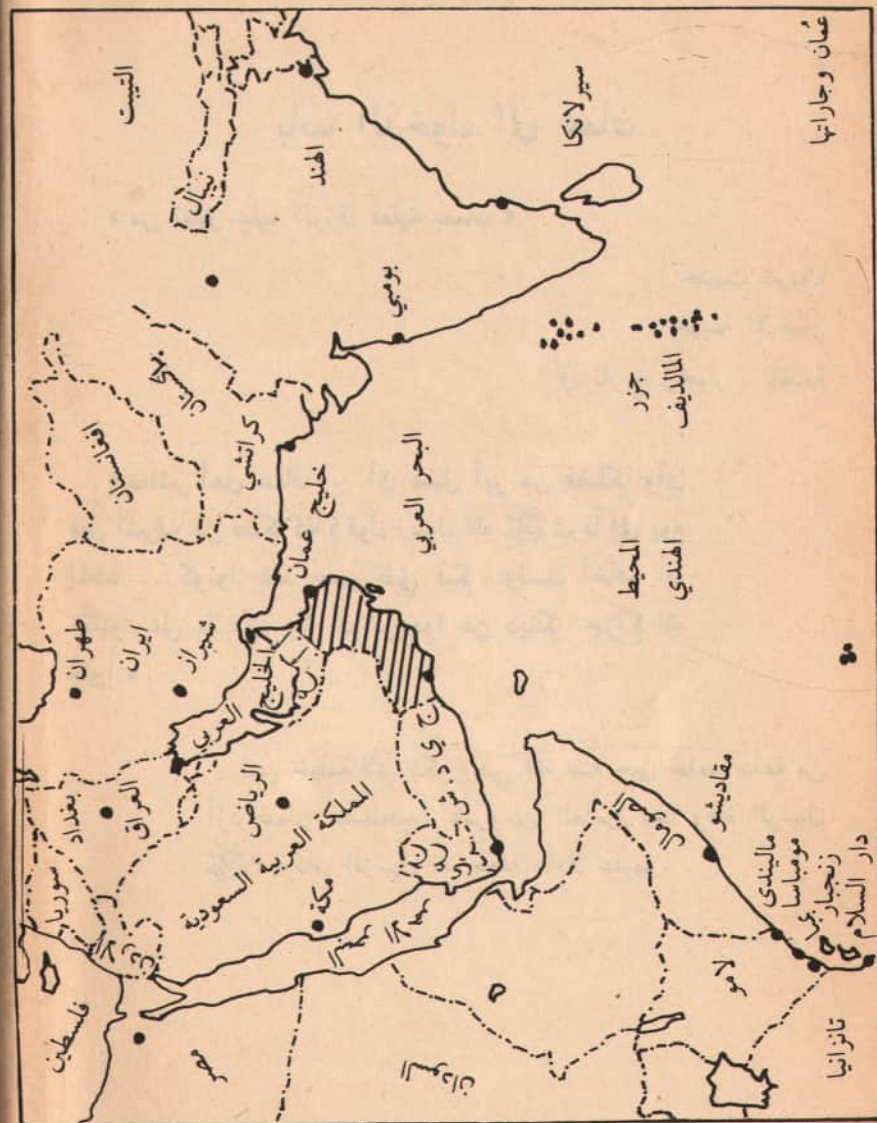
« معاشر أهل عمان ... أي فضل أبر من فضلكم وأي
فعل أشرف من فعلكم كفاكم قول رسول الله ﷺ شرفاً إلى يوم
المعاد ... كونوا عند حسن ظني فيكم ، ولست أخاف أن
تغلبوا على بلادكم ، ولا أن ترجعوا عن دينكم . جزاكم الله
خيراً » .

من خطبة لأبي بكر رضي الله عنه حين جاءه جماعة من
أزد عمان مصطحبين عمرو بن العاص بعد وفاة الرسول
ﷺ ، وكان الرسول قد جعله عاملاً عليهم .

الباب الأول

الدخول الى عُمان

تقع عُمان في الركن الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب ، بين خطي عرض ١٦° ٤٠' و ٢٦° ٢٠' وخطوط الطول ٥١° ٥٠' و ٥٩° ٤٠' تحدها دولة الإمارات العربية المتحدة من الشمال الغربي والسعودية الى الغرب واليمن الديمقراطية في الجنوب الغربي . وكان إسم عُمان يطلق على عموم المنطقة الممتدة من ظفار إلى قطر ، بينما تشكلت المنطقة على النحو الحالي بعد الحملة البريطانية على إمارات ساحل عُمان عام ١٨٢٠ والتي شارك فيها السيد سعيد بن سلطان سيد عُمان في تلك الفترة الى جانب البريطانيين وضد التحالف القاسمي بهدف أن يستفيد من هذا التحالف لاستعادة سيطرته على ساحل عُمان . ولكن الجنرال ويليام جرانت كير ، قائد الحملة البريطانية فصل المنطقة وقسمها في نفس الوقت الذي كان فيه السيد سعيد ينتظر على المنطقة الساحلية لیتسلمها . وهكذا تشكلت المنطقة في واقعها الراهن بين دولة الإمارات وبين سلطنة عُمان التي بات جسمها ينقسم الى قسمين يعرف الجزء الأصغر منها بمنطقة رؤوس الجبال أو مسندم وهو منفصل عن بقية جسم السلطنة بمنطقة ساحلية تدخل ضمن حدود الإمارات العربية ويقدر طولها بـ ٨٠ كيلومتراً . ويشرف هذا الجزء على منطقة من أهم المناطق في العالم (سابقاً والآن) وهو مضيق هرمز . ولكن هذه المنطقة ضئيلة ومنفصلة عن بقية البلد ، وهي قليلة السكان ووعرة المسالك .



تبلغ مساحة عُمان ٢٧٥.٠٠٠ كيلومتراً مربعاً تقريباً. وتكاد الصحارى التي تطوقها من ثلاث جهات أن تكمل الجهة الرابعة والتي تطل على البحر، فتجعل بذلك من عُمان جزيرة محصورة بين مياه بحر العرب ومن ثم المحيط الهندي وبين رمال الربع الخالي المترامية الأطراف. ولقد فرضت هذه الوضعية على العُمانيين أن يتجهوا الى البحر كمصدر أساسي أن لم يكن يشكل المصدر الأساسي لهم فيما مضى. وفرضت بالمقابل نوعاً من العزلة وصعوبة الاتصال مع بقية مناطق الجزيرة، هذه العزلة التي زادت عورة جبال الحجر والتي تخترق عُمان من رؤوس الجبال وحتى رأس الحد. وتحتاج هذه المسألة إلى شيء من التوضيح سنعود إليه فيما بعد ولكن يمكننا القول هنا بادی ذي بدء بأن هذه العزلة لم تأخذ شكلاً منهجياً موجهاً إلا بعد مجيء بريطانیا، فلقد ظل بر عُمان على اتصال بحيطها العربي منذ عصور ما قبل الإسلام وأثناء قيام الدولة الإسلامية، وكانت عُمان من أولى المناطق التي أسلمت، وكان إسلام أبنائها بدون حرب، وشاركت قبائلها مشاركة فعالة في الفتوح الإسلامية، وبرز من أوساطها قادة عسكريون بارزون وطاقات فكرية أسهمت في المجرى العام للحضارة العربية الإسلامية.

شكلت الهجرات العربية القادمة من اليمن ومن أواسط الجزيرة العربية على مدى القرون الماضية مصدر التراكم السكاني الأساسي في عُمان. وأشهر القبائل العربية التي سكنت عُمان هي قبائل الأزد والتي قدمت إلى عُمان قبل الإسلام بمئات السنين ويعودون بأصلهم الى اليمن. ويتوارث العُمانيون جيلاً بعد جيل رواية كيفية مجيء هؤلاء العرب الأوائل تحت زعامة البطل الأسطوري مالك بن فهم الأزدي الى عُمان ونجاحهم في إجلاء الفرس عنها. فبعد أن طلب الأزد من الفرس السماح لهم بنزول عُمان سلماً، ورفض الفرس ذلك استعد العرب للقتال بعد أن أمر «المرزبان أن

ينفخ في البوق وتضرب الطبول وركب من صحار في جنوده وعساكره... في زهاء أربعين ألفاً، ويقال ثلاثين ألفاً، ومعه الفيلة»^(١). ويصف أبو سليمان بن محمد بن عامر بن راشد المعولي الإستعدادات العربية فيقول بأن مالك بن فهم:

«ركب في ستة آلاف فارس حتى صحراء شلوت... (و) بات ليلته يعبى عساكره يمينه ويسرة وقلباً، ويكتب في الكتائب. ويوقف فرسان الأزد مواقفهم. فولى اليمين ابنه هناء، والميسرة ابنه فرا هيدا. ووقف هو في القلب في أهل النجدة والشدة... وركب مالك فرساً أبلق، ولبس درعين، ولبس عليهما غلالة، وتكلم على رأسه بكمة حديد، وتعمم عليها بعمامة صفراء...»^(٢).

الى آخر القصة التي انتهت بهزيمة الفرس وتعريب غالبية عُمان بانتظار مجيء الإسلام وتقبل عُمان له حيث تجتمع الأزد إلى جيفر بن الجلندا وتخبره «لا تجاورنا العجم بعد هذا اليوم»^(٣) فتم السيطرة العربية الكاملة على عُمان.

كما قدمت الى عُمان واستوطنتها مجموعة من القبائل الشمالية، حيث نزلت إليها قبائل بنو سامة بن لؤى وهم من قريش مكة، وقضاعة من نجد وقبائل عبد القيس بنو تميم، نزحوا إليها جميعاً من أواسط الجزيرة واستقروا بعُمان. وطبع أصل هذه القبائل التي قدمت من شمال الجزيرة وجنوبها، التاريخ العُماني بحيث تمحورت الصراعات وبرزت في كثير من الأحيان وكأنها صراعات بين العرب الشماليين ويسمون نزاراً أو الغوافر، والعرب الجنوبيين ويسمون قحطان أو الهناوية.

وينقسم العُمانيون من الناحية المذهبية الى سنة وأباضية، وهي فرقة

سميت اثر عبدالله بن أباض بعد الانقسامات التي حدثت وسط المسلمين أثناء خلافة علي بن أبي طالب وتزايدت بعد قيام الدولة الأموية والدولة العباسية .

حافظ الداخل في عُمان على سمته العربية المطلقة ، بينما شهد الساحل هجرات قديمة مرتبطة بالسيطرة العُمانية السابقة على سواحل افريقيا وآسيا من جهة ومرتبطة أيضاً بالسيطرة البريطانية على عُمان والتي أتاحت لبعض من تشملهم الحماية البريطانية الهجيء والاستقرار في عُمان ، وبالذات في المدن الساحلية ، من جهة أخرى . وهكذا وجدت جماعات من البلوش القادمين من منطقة مكران (وهي تابعة حالياً لباكستان) . ونجد جماعات من الهنود الذين قطنوا مسقط في أحياء خاصة بهم .

ويعرف سكان منطقة رؤوس الجبال بالشحوح ولهم لغة محكية ، ويعتقد البعض بأنهم سكان عُمان الأصليين وقد أزغمتهم الهجرات المختلفة الى النزوح الى تلك الأماكن القصية . وهناك بعض من يرى فيهم بقايا أقوام تتحدث بإحدى اللغات الهندو - أوروبية وقد اجتاحوا ماجان القديمة ، بعد أن اجتاحوا حضارة وادي السند ودمروها^(٤) . وما جان هذه كانت مصدر تموين النحاس للحضارات الرافدية القديمة وتشير كل الأدلة الى انها عُمان الحالية .

أما الجزء الجنوبي الغربي من عُمان فهو منطقة ظفار ، وسكانها يتكلمون بإحدى اللهجات اليمنية القديمة (الشحرية) وهي إحدى لهجات ما يعرف بالعربية الجنوبية القديمة . وينقسم السكان تبعاً لنفس الإنقسام الذي يشمل عُمان أي الى هناوية وغافرية وذلك حسب مناطق الهجيء الأصلية . وتسود الشحرية متجاورة مع اللهجات التي يحكيها البطاحرة والحراسير وهم الذين يقعون الى الشرق من ظفار ، واللغة المهرية والتي يحكيها سكان

منطقة محافظة المهرة ، وهي المنطقة المحاذية لعُمان غرباً مع اليمن الديمقراطي .

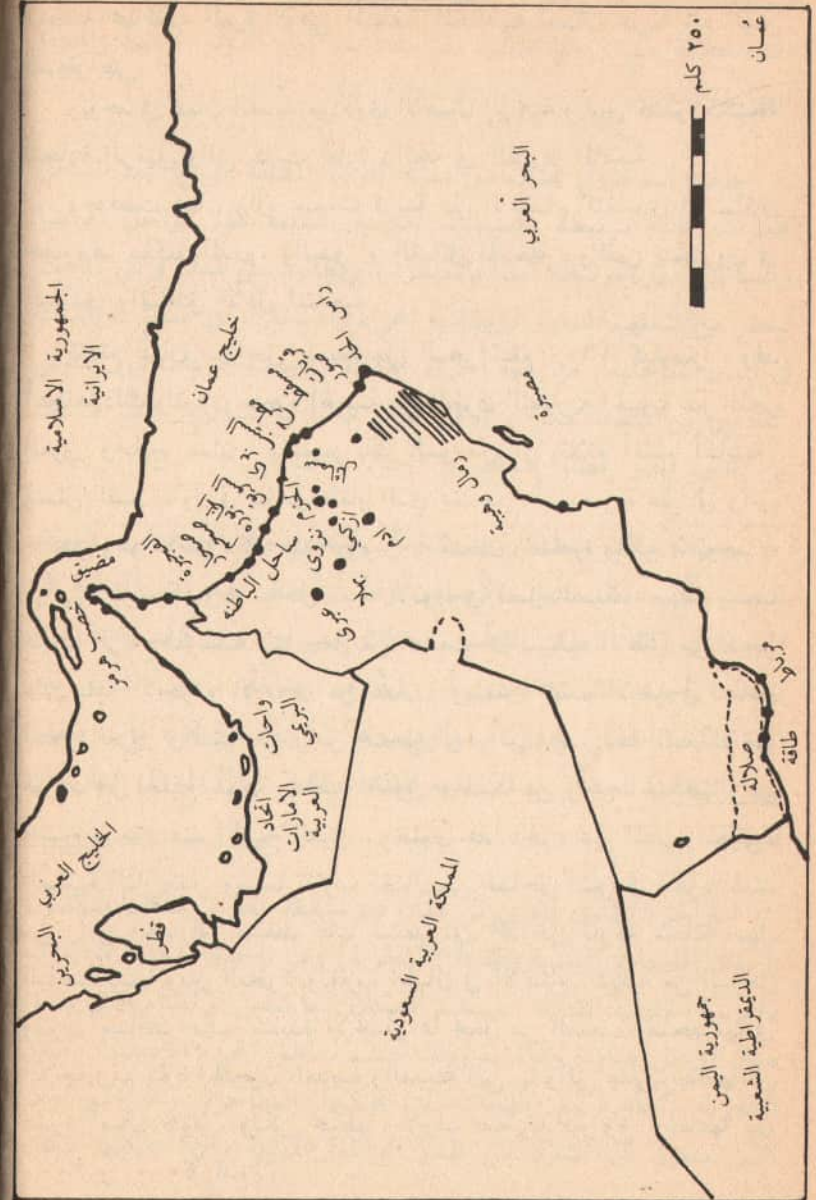
ويوجد في عُمان العديد من ذوي الأصول الزنجية والذين قدموا كنتيجة لتجارة الرقيق والتي كانت تجارة رائجة في القرون الماضية . وحافظت عُمان والى سنوات قريبة على الانقسام التقليدي الى سكان حضروهم ساكنو المدن ، والبدو أو القبائل المتنقلة ، والذين ينتشرون في البوادي والمناطق الأقل انتاجية .

تتمتع عُمان بسواحل طويلة على البحر تبلغ ١٦٠٠ كيلومتراً ، وقد أعطاه ذلك ولقرون عديدة الهيمنة على الطرق التجارية الحيوية عبر البحر العربي وخليج عُمان . وتنقسم تلك السواحل الى ثلاثة أقسام أساسية . يتمثل القسم الأول في ساحل ظفار الذي يمتد من رأس ضربة علي الى رأس جنجلي وهو ساحل تكثر فيه الرؤوس والخلجان الصغيرة ولكن لا توجد به موانئ طبيعية ، وهو ساحل شديد الأنواء في فصل الصيف ، وذلك بسبب هبوب الرياح الموسمية ، مما جعل من الصعب أن يستفيد الأهالي من البحر مثل بقية الأجزاء الأخرى من عُمان . ويتمثل القسم الآخر في ساحل البحر العربي والممتد من رأس جنجلي الى رأس الحد . أما القسم الأخير فهو ساحل خليج عُمان والخليج العربي والممتد من رأس الحد الى رأس الشيخ مسعود عند الخليج العربي . ويحتوي هذا الجزء على المدن والموانئ العُمانية التاريخية . وبينما تقترب الجبال من الساحل كثيراً في الجزء الممتد من رأس الحد الى مسقط فانها تبتعد الى الداخل تاركة منطقة سهل الباطنة بينها وبين البحر . وتقترب الجبال في الأقسام الشمالية من الساحل وتترك مساقط عالية شديدة الإنحدار مما يجعل من الصعب استخدامها في الملاحة رغم كثرة الخلجان العديدة والعميقة التي بها والتي يقترب بعضها من عشرة أميال طولاً ، ولكن تحيطها جروف صخرية يتراوح ارتفاعها بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ قدم .

تخترق عُمان سلسلتان من الجبال ، الأولى وهي سلسلة جبال الحجر التي تنقسم الى ثلاثة أقسام : الحجر الغربي يليها الجبل الأخضر فالحجر الشرقي ، وتمتد من الشمال الى الجنوب محاذية للبحر . وتقع بالجبل الأخضر أعلى القمم وهي قمة جبل شام التي ترتفع الى ٩٩٤٠ قدم وتقطع الهضبة الواقعة وسط السلسلة وديان ينحدر أكثرها شرقاً فتصب في البحر ، كما ينحدر بعضها غرباً فتضيع مياهها في الصحراء . ولقد شكلت هذه المنطقة حاجزاً طبيعياً حافظ على جو العزلة النسبية التي عاشتها القبائل العُمانية ، وأوجد عنصراً حامياً للقبائل التي اتبعت المذهب الأباضي .

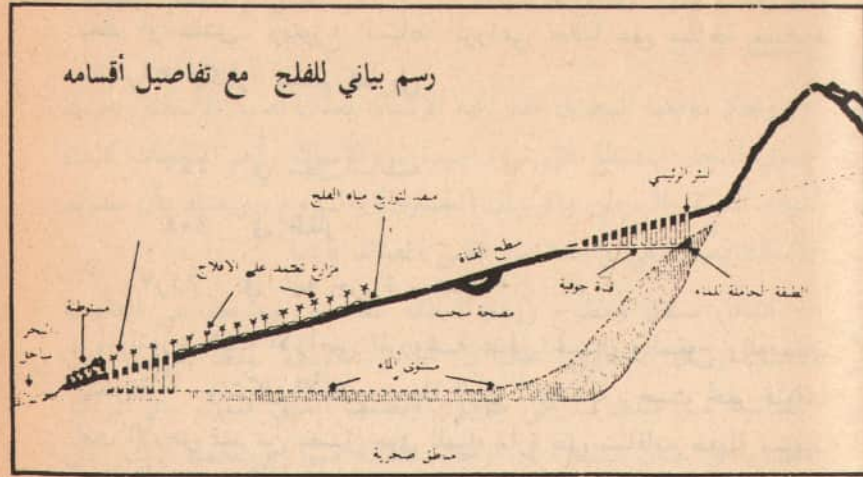
أما السلسلة الثانية فهي سلسلة جبال ظفار بأقسامها الثلاثة جبل سمحان وجبال القرى المشرفة على صلالة ، ثم جبال القمر المحاذية لليمن الديمقراطية . وهذه الجبال هي امتداد لجبال حضرموت ولقد كانت العزلة التي فرضتها هذه الجبال أشد من تلك التي شهدتها مناطق عُمان الأخرى ، فإذا كان البحر الفسيح قد انفتح أمام العُمانيين في المناطق الأخرى ليربطهم بالعالم وليرتبطوا عبر دورهم البحري الذي لعبوه ببقية المناطق العربية والإسلامية ، فإن الجبال المنيعه والصحارى الواسعة والتي تحيط بظفار من ثلاث جهات والرياح الشديدة الوطأة والتي تجعل من الإتجاه إلى البحر صعباً ، كل ذلك قد ترك هذه المنطقة تحت رحمة المواصلات المارة عبر الصحراء وتلك المتقطعة عبر البحر .

تقع عُمان على مدار السرطان ويتجلى فيها المناخ الصحراوي . يكون الجو في الساحل الشمالي رطباً وحاراً . وتتراوح الحرارة في فصل الصيف بين حزيران وأيلول حول ٤٠° ولكنها قد تصل الى ٥٠° . ويبلغ معدل الحرارة بمسقط ٤٠° . ويزيد من وطأة الحرارة الشديدة الرطوبة الكبيرة التي تملأ الجو . ولقد توفي أربعة من الوكلاء البريطانيين الذين عينوا في مسقط عبر القرن الماضي بسبب شدة حرارة الطقس ، وكان الأول في قائمة



المتوفين هو الدكتور بوجل وهو الأول بدوره في قائمة الوكلاء البريطانيين بمسقط. وقد تصل الحرارة في المناطق الداخلية الجافة الى مستوى أكثر حدة. أما في الشتاء، فيظل الساحل دافئاً ولا تهبط الحرارة عن ١٠°، أما في الداخل فيمكن للجو أن يكون أكثر برودة. وتقع عُمان على الحد الفاصل بين تيارين حاملين للأمطار يأتي أحدهما من البحر الأبيض المتوسط والثاني من المحيط الهندي. ولذلك فأمطارها غير منتظمة، فقد يتلاشى التيار الأول قبل وصوله الى عُمان فيحدث جفاف غير طبيعي وذلك فإن أمطار التيار الثاني قد لا تتحقق إذا لم يصل التيار البر المعاني. وشهر كانون الثاني هو شهر سقوط الأمطار عادة. ويبلغ معدل سقوط الأمطار في الشمال حوالي ٢ - ١٠ سنتيمتر وتسقط غالبيتها في الشتاء والربيع. أما في ظفار فإن الطقس هو شبه استوائي وتسقط عليها الأمطار الموسمية القادمة من المحيط الهندي من منتصف حزيران ويبلغ معدل الأمطار السنوي ٥٠ سنتيمتراً، ولذلك تعدل الحرارة، وتخترق هذه الأمطار جبال ظفار فتحيلها الى ساحات خضراء زاهية.

تسقط هذه الأمطار على مختلف المناطق فتنساب أما الى البحر أو تضيع في رمال الصحارى حين انسيابها في 'الأودية التي تنتهي في الصحارى. إلا إن هذه الكميات التي تسقط تؤمن استمرار إمداد خزانات المياه الجوفية، كما تحافظ بعض الوديان على جريان المياه فيها لفترات طويلة من السنة. وتوجد في سهل صلالة بعض الينابيع الدائمة الجريان. ويشير تاونسند (وقد عمل كمستشار للسلطنة في بداية السبعينات) في تقرير له الى أن ٨٠٪ من المساحة الإجمالية للبلد تتكون من صحارى مليئة بالرمال والحصى، و ١٥٪ من الجبال العارية والوعرة^(٥) وتنقسم السهول إلى قسمين الساحلية والداخلية. وأهم السهول الساحلية هو سهل الباطنة ويقع بين الجبل الأخضر والبحر ويبلغ طوله حوالي ٢٦٠ كيلومتراً، ويتراوح عرضه بين ٢٥ كيلومتراً الى ٣٠ كيلومتراً. وهو عبارة عن حزام من المناطق المزروعة



رسم بياني للفلج مع تفاصيل أقسامه

الفلج وهو طريقة الري التقليدية بعُمان

ويحتوي على ٤٠٪ من مجمل الأراضي المزروعة. وهناك سهل صلالة والذي يطلق عليه محلياً «الجريب» ويفصل ما بين جبال القرى والساحل، ويبلغ طول السهل ٧٠ كيلومتراً بعرض يتراوح بين ١٥ الى ١٠ كيلومترات. وهناك السهول الداخلية وأهمها سهول الشرقية وجعلان وسهول عمان الواقعة خلف الجبل الأخضر. وتبقى هناك الواحات والوديان المتفرقة والتي يستفاد منها لري مساحات صغيرة من الأرض، كما أن هناك مساحة زراعية محدودة في رؤوس الجبال.

تتفاعل هذه الظروف الجغرافية جميعاً من شدة الأمطار وعدم انتظامها (عدا ظفار) فتؤدي إلى غلبة المناطق الصحراوية والجبلية لتحد من النشاط الزراعي. ولغياب الإحصاءات للفترة التي سنتناولها بالبحث في هذا الكتاب، فإن الإحصاءات الحديثة يمكنها أن تعكس النسب ولن

تكون بعيدة كثيراً عن الوضعية السائدة نسبياً قبل ما يزيد على القرن
بعقد أو عقدين . ويتوزع النشاط الزراعي حالياً على مساحة مقدارها
٣٦٠٠٠ هكتاراً تنقسم كما يلي :

٤٠ % في سهل الباطنة

٠٤ % في ظفار

١٧ % في شبه جزيرة مسندم

وتتوزع بقية الأراضي المزروعة على الجبال والسفوح والوديان
المتفرقة^(١) . وتشكل الأفلاج وسيلة الري التقليدية ، حيث تحفر قنوات
تحت الأرض تمتد من مصدر جوفي للمياه مارة على مسافات طويلة يستفيد
منها الأهالي عبر أساليب وتقاليد متفق عليها عبر عشرات السنين ، وسط
توازن بين كمية المياه الساقطة وعدد السكان القائم ، وهو توازن بات
مهبطاً في السنوات الأخيرة .

ظلت عُمان تنتج تقليدياً محاصيل زراعية عديدة أهمها التمور
والليمون اللذان يشكلان المنتجين الأساسيين في التصدير للخارج . وتنتج
الموز والرمان والتين والعنب والنبق والفرجل والخنطة والشعير وقصب
السكر والانبج . وتنتج ظفار جوز الهند ، كما شكلت دوماً مركزاً أساسياً
لإنتاج اللبان والبخور الذي احتل أهمية فائقة في العصور القديمة
والوسطية .

وتنمو في السهول الداخلية وعلى النجود الحشائش بعد زخات المطر التي
تسقط ، فتوفر عشياً للماشية . وتوجد بعُمان فصائل جيدة من الإبل وتربي
الأغنام والماعز . بينما ظلت معيشة سكان ظفار الى وقت قريب معتمدة
على تربية قطعان من الأبقار والماعز والإبل اعتماداً على كميات المطر
الكبيرة نسبياً الساقطة على الجبال صيفاً . وتحتوي عُمان على مجموعة من

الحيوانات مثل المها والظبا والغزلان والماعز الجبلي والثعالب والذئاب
والقطط البرية .

وبحكم موقعها البحري فقد اتجه الإنسان بعُمان لصيد الأسماك ، حيث
تحتوي البحار المحيطة على ثروة جيدة من الأسماك وأهم المنتجات كانت
أسماك التونة والسردين والربيان (الجمبري) والشروخ . ويعتقد بأن مصائد
الأسماك بعُمان هي واحدة من أغنى المصائد بأسيا^(٢) .

تشكل مسقط ومطرح وروى منطقة العاصمة ، ومسقط هي العاصمة
الأصلية وسكانها يقدرون حالياً بـ ٨٠٠.٠٠٠ نسمة . ولقد تكونت المدن
العُمانية على مدى تاريخي طويل ، ويصفها العاني فيقول بأن المراكز
الحضرية في عُمان منتشرة في أرجاء متعددة منها ، ومعظمها ينتشر على
الساحل ، ويرجع ظهورها ونموها الى التجارة والملاحة التي تتطلب موانئ
للسفن ومراكز لتجارة البحر . غير أن بعُمان أيضاً مراكز حضرية أخرى
منتشرة في بعض الجهات الداخلية ، أو في المناطق الزراعية والصناعية ،
وهي تكون أسواقاً ومركز تموين للمنطقة الصحراوية ، كما أن بعضها
يشكل مراكز عسكرية وقلاعاً يتحصن بها الثوار^(٣) .

ارتبط تاريخ عُمان منذ قديم الزمان بالبحر والملاحة ، فقد استغل
ابناؤها بشكل جيد موقع بلدهم على البحر أو أرغموا على ذلك ارغاماً .
فهم في ذلك مثلهم مثل بقية سكان جنوب الجزيرة العربية وجدوا أن
سواحل

« بلاد العرب الجنوبية سواء منها الغربية أو الجنوبية جميعاً ،
سواحل فقيرة جرداء إلا من النباتات الشوكية التي تصبر
على الجذب والعطش ، فكان من الطبيعي أن يلجأ سكانها الى
ركوب البحر لاصطياد ارزاقهم منه ، الى الهجرة الى
السواحل الافريقية المجاورة لهم . ومن الطبيعي أن تؤدي

هجرتهم المستمرة الى السواحل الافريقية (والهندية) الى تطوير بناء سفنهم . والوصول الى الأماكن البعيدة منها . وزيادة معرفتهم بالمواضع الخطرة والمسالك الآمنة في البحار الفاصلة بينهم وبين هذه السواحل «^(١١) .



أقدم نص مسماري أكادي يحمل إشارة معروفة لماجان :

وقد ورد به

ما مي - لوخ خا

ما ما - جان كي

ما ديلمون كي

ان جا - ري - يم

ماهار أ - جا - دي كي

أوس - كو - لي

لقد تمكن العُمانيون من معرفة مواقيت هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية في الإبحار من عُمان الى الهند والصين والعودة ، وفي الإبحار من عُمان الى سواحل افريقيا والعودة منها . ولقد سيطر العرب على الملاحة في هذه المنطقة من العالم لفترات طويلة . ويشير جويلان الى أن العرب قد قبضوا منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وخاصة في الشرق ، فكانت سفنهم تجري في المحيط الهندي ، لا سيما بين بلادهم والهند . ويذكر ان الهند كان بها جالية كبيرة على سواحلها وذلك ما كان قائماً الى قبل عقد أو عقدين من الزمن ، وذلك قرب نهر السند . وقد وجد قائد الاسكندر نيارخوس آثاراً دالة على نفوذ العرب من مدن عربية وأساطيل عربية^(١٢)

ووسط هذه السيطرة العربية كان العُمانيون هم الأبرز بين العرب في هذا الميدان . وقديماً قال أحد الشعراء العرب :

إذا أزدية ولدت غلاماً فبشرها بملاح مجيد

بل أن العرب من ذوي الأصول البدوية كانوا يعيرون العُمانيين بدورهم البحري ، وحينما هجى الفرزدق يزيد بن المهلب عيره بأصله العُماني المرتبط بالبحر^(١٣) ولكن لم يطغ هذا بالطبع على الصورة الهامة التي ارتسمت عن عُمان وعن دورها البحري . فأبو الفدا يقول «عُمان مدينة جليلة بها مرسى السفن من السند والهند والصين والزنج» والقلقشندي يقول «مدينة عُمان فرضة بلاد البحرين واليهما تنتهي مراكب الهند والزنج» ويقول الحميري في الروض المعطار أن عُمان «مدينة معروفة... وهي فرضة البحر... وهي فرضة الصين وبها مرقا الصين»^(١٤) .

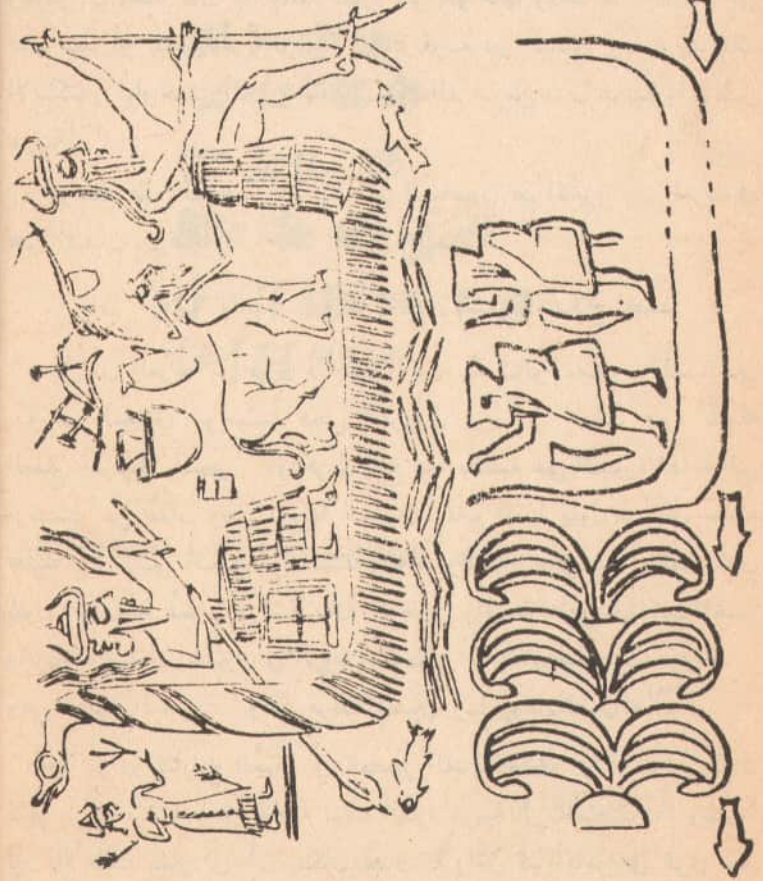
ولا يزال التاريخ العُماني في العصور القديمة بحاجة الى بحث ولا تزال كثير من الاستنتاجات الخاصة بتلك الفترة قريبة الى الفرضيات . وعموماً فإن الأبحاث تشير الى أن سكان عُمان الأوائل قد أقاموا في قرى منذ

طبعتان لخميين راغبين اسطوانيين مبكرين
تظهران اشارات هامة لشكل سفن الألف
الثالث قبل الميلاد وطريقة بنائها.



العصر الألفي الرابع قبل الميلاد وأظهرت الحفريات على وجود اتصالات
لعمان ببعض الأقطار المجاورة. وشكلت موانئها وقراها ملتقى لثقافات
وفدت إليها من أقطار قريبة منها كالعراق وبلدان الخليج وبلوشستان
وفارس وتركستان وتشير القرائن الى ما يحمل على الإعتقاد بأن البلاد التي
كانت تسمى ماجان إنما هي عمان بالذات، واذا صح هذا الاعتقاد كما
ترجح هذه الآراء فإن عمان، أو ماجان كما كانت تسمى، قد دخلت في
علاقات واسعة مع الحضارات القائمة آنئذ كالعراق ووادي الأندوس^(١٣)
وكانت ماجان هذه قد وردت في اللوحات الرافدية لتشير الى أن السفن
كانت ترتاد موانئ «أور» محملة بمختلف السلع والمنتجات. ومن أهم
صادرات ماجان كان النحاس مقابل الفضة وزيت الطعام والمنسوجات
والمصنوعات الجلدية. وأكدت بعثة تابعة لجامعة هارفارد قامت بعمليات
مسح بعمان عام ١٩٧٣ أن هناك من الدلائل ما يشير الى وجود عمليات
لصهر النحاس في أربع مناطق من مناطق التنقيب هي سمد والباطنة
والظاهرة وأبرا^(١٤).

ومع تقدمنا في القرون الميلادية نقرب أكثر فأكثر من معالم التاريخ التي
تركت بصماتها بشكل أوضح وأقوى على وجه عمان الحديث. لقد قدمت
القبائل العربية تباعاً الى عمان وعبر موجات متعددة. ونعود لنلتقي مع ما
ذكرناه في بداية الصفحات حول قدوم الأزدي من اليمن والتي يفصلها
المؤرخون العمانيون اعتقاداً على كتابات سابقة (إبن رزيق والسالي)، وهم
بمؤرخون تلك الهجرة بالفترة التي تلت انهيار سد مأرب. ويحتمل أن تكون
الهجرة قد تمت بين القرن الثاني والثالث الميلادي. ولقد استوطن العرب في
باديء الأمر في المنطقة المحيطة بقلهات وجعلان ثم أخذوا يتوسعون في
بقية المناطق. وبمجيء الإسلام يحقق العمانيون تعريب البلاد بشكل كامل.
كانت عمان على اتصالات وثيقة بالحجاز قبل مجيء الإسلام ويتجلى

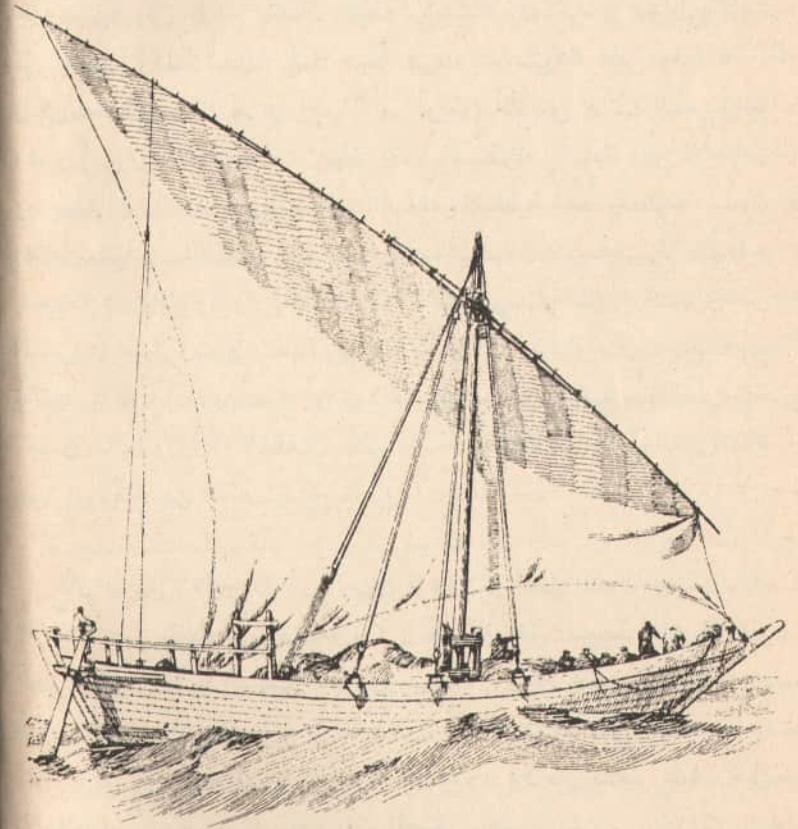


ذلك في ما ذكره النسابون من هجرة سامة بن لؤى وهم من قریش الى عُمان ، كما يتجلى ذلك في انتشار المنسوجات العُمانية والصحارية في الحجاز . وشكلت أهمية عُمان التجارية والعسكرية عاملاً من العوامل التي دفعت بالنبي ﷺ إلى الإهتمام بها^(١٥) واعتنق ابنؤها الإسلام في أواخر حياة الرسول سلماً ومن دون قتال ، وقد دارت عدة روايات حول أن الرسول قد أرسل عمرو بن العاص الى صاحبي عُمان وهما جيفر وعبد إبنی الجلندي ومعه رسالة يدعوها فيها إلى الإسلام . وأثمرت الإتصالات وأدت الى قبول جيفر وعبد إبنی الجلندي دعوة الإسلام وأسلم من معهما من العرب . وبعد وفاة النبي ارتد بعض الأزد الذين التفوا حول لقيط بن مالك ، من أزد دبا من العتيك . إلا أن أبو بكر وجه اليهما حذيفة بن محصن الغلفاني وعرفجة البارقي وعكرمة بن أبي جهل ، حيث تمت هزيمة المرتدين في دبا^(١٦) وواصل أبناء الجلندي بعد ذلك احتفاظهما بالسلطة في عُمان وأرسل أبو بكر وعمر عمالاً اليهما . وفي عهد عثمان ربطت عُمان بالبصرة مع استمرار احتفاظ الجلندي بسلطات واسعة ، « وإن كانوا يخضعون الى التوجيه السياسي العام للدولة ، أي أنه قائم على إتاحة الفرصة لآل الجلندي في تنفيذ سياستهم في الإدارة والتجارة ، على أن لا تكون معارضة لمصالح الإسلام والسياسة العامة للدولة »^(١٧) . ويبدو أنه طالما ظلت عُمان تقوم بدورها في كونها منطقة اتصال بين مناطق القارة الهندية والصين وأفريقيا مع المنطقة العربية وفي ظل المحافظة على الارتباط بالخطوط العامة لسياسة السلطة المركزية فإن السلطة المركزية لا تسعى بدورها الى زيادة تدخلها في السياسة المحلية . وفي بداية الدولة الأموية تمتع الجلندي باستقلال كبير في عُمان ، وكانوا يسيرون أمورها كما يريدون دون الرجوع للخلافة في دمشق . وبعد وفاة يزيد سقطت عُمان تحت حكم المناهضين للدولة لفترة . وبعد أن قضى الأمويون على معارضيتهم الرئيسيين « أهتموا باستعادة سلطانهم على عُمان وفرض سيطرتهم عليها ، ويرجع هذا الإهتمام الى عوامل

عديدة ، فإن عُمان تقع على الطريق التجاري البحري مع افريقيا والهند وبلاد الشرق الأقصى ، ولها تأثير في تأمين سلامة الملاحة في الخليج العربي ، هذا فضلاً عن انها أصبحت تسيطر على هذه التجارة ، ثم أن السيطرة على عُمان يحرم الثوار ومناهضي الحكم الأموي من معقل طبيعي محصن »^(١٨) . وحين صار أمر الخلافة في يد عبد الملك بن مروان قام واليه على العراق ، الحجاج بن يوسف الثقفي بإرسال جيوش عديدة إلى عُمان والتي كانت تحت سيطرة سليمان وسعيد إبنی عباد بن عبد الجلندا « فكان الحجاج يبعث لحروبهم الجيوش ، وهما يفضان جموعه ، ويبيدان عساكره في مواطن كثيرة من عُمان ، وكلما أخرج لهما جيشاً هزمه ، واستوليا على سواده »^(١٩) . ولكن الحجاج أرسل لهم في آخر الأمر أربعين ألفاً من جانب البحر والبر وهزم إبنی الجلندا وعادت عُمان تحت السيطرة الأموية وفر الأخوان ومواليهما الى افريقيا . ومع مجيء الدولة العباسية أخذ خلفاؤها يبدون اهتماماً متزايداً بالأقاليم الشرقية وخاصة السند ، كما اهتموا بالتجارة البحرية « ولذلك زادوا اهتمامهم بعُمان التي يمر بها الطريق البحري بين البصرة وجنوبي شرقي آسيا ، وذلك لتأمين سلامة المواصلات العسكرية والتجارية »^(٢٠) . ولقد اعتبر أوائل العباسيين منطقة الخليج منطقة واحدة وعينوا عليها والياً ذا سلطة في أقاليم واسعة ، وكان هذا الوالي يعين الولاة على كل إقليم من أقاليم الخليج العربي .

كان طريق الخليج لا يؤمن العراق لوحده أو أقاليم المشرق فحسب ، بل كان كما سبق القول يؤمن منطقة بلاد البحر الأبيض المتوسط وأوروبا فهو أقصر الطرق إذا ما استتب الأمن في ربوعه^(٢١) وعند ظهور الإسلام كانت البحرين هي مركز التجارة فانتقلت الى عُمان . بل أن أبو عبيدة ياقوت يقول « ان ارد شیر بن بابك قد جعل الأزد ملاحين بشجر عُمان قبل الإسلام »^(٢٢) ويذكر المسعودي أن المحيط الهندي :

تشكيل تقريبي لنوع السفن العابرة المحيطات التي ربما استخدمها العُمانيون خلال فترة عظمة مدينة صحار. وأهم ما تتميز به هو بنائها بخياطة ألواح معاً بالحبال بدلاً من المسامير بنهائيتين متشابهتين وبمخذاف للتوجيه ربما استبدل فيما بعد في القرون التالية بدفة تدار بالحبل كما جرى تطوير الشراع المثلث في فترة قصيرة سابقة.



« له خليج متصل بأرض الحبشة يمتد الى ناحية بربرى في بلاد الزنج والحبشة ويسمى الخليج البربرى... وأهل المراكب من العُمانيين يقطعون هذا الخليج الى جزيرة قنبلو في بحر الزنج... وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عُمان عرب من الأزد... وينتهي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو... والى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج والأسافل من بحرهم » (٢٣).

وسفالة هي مماسة أما قنبلو فهي مدغشقر.

وكانت الملاحة العربية نشطة ومباشرة مع الصين في القرن الثالث الهجري، وهي تصل خانفو، أي كانتون الحالية. ويقول المسعودي « ووجدت نواخدا بحر الصين والهند والسند والزنج والقلزم والحبشة من... العُمانيين » (٢٤) ولم يقتصر العُمانيون على الملاحة بل كانوا بنائين للسفن يبنون بعضها في عُمان والبعض الآخر بأيديهم في الهند حيث يذهبون إليها سعيًا وراء جودة الأخشاب، وكانوا يديرون السفن التي يبحرون عليها ويملكونها (٢٥).

ضمن هذا التشابك والعلاقات والفعل والتفاعل، اختارت عُمان تمايزاً نسبياً انعكس في تركيز المذهب الإباضي. فلربما وافق هذا المذهب قبولاً في أنفس العُمانيين وناسبهم لظروف جغرافية واقتصادية ولواقع العزلة النسبية الذي يكتنف جنبات عُمان، كما أن المذهب الإباضي وجد في جبال عُمان العصية وروح القبائل العُمانية القتالية الحماية والموئل اللازم للحفاظ عليه بوجه هجمات الدول المركزية المتعاقبة.

ويعود المذهب الإباضي إلى عبد الله بن إباب (١٢٧ - ١٣٢ هـ)، وهو الذي اشتهر بخروجه على عبد الملك بن مروان الأموي. وقد قام بهذه

الثورة يحيى وأبو حمزة بين عامي (١٢٧ - ١٤٦ هـ) وانتهت بقتل الزعيمين الثائرين»^(٢٧). ويذكر العديد من البحاث العرب الإباضية ضمن فرق الخوارج، وعلى سبيل المثال يقول الدكتور نايف محمود معروف، في كتابه عن الخوارج:

«وصفت الإباضية بأنهم أقرب الفرق الخارجية الى أهل السنة. ولعل اعتدال هؤلاء الجماعة من الخوارج وعدم إنجرافها مع الفرق الخارجية الأخرى، هو الذي أتاح لهم البقاء إلى أيامنا في بعض مناطق شمال افريقيا وعمان وزنجبار»^(٢٨).

ولكن الإباضيون يصرون على تميزهم عن الخوارج. يقول المؤرخ العماني ابن رزيق «وعبدالله بن إباح المذكور هو أول من فارق فرق المارقين من الرافضة والزيديين، والأشعرية، والخوارج المارقين من المعتزلين، وسائر فرق الحائنين عن طريق حقيقة الدين»^(٢٩).

انتشرت الإباضية في المناطق التي لا تصل إليها الدولة العباسية. وقد تركزت في عمان، وامتدت لذلك استتباعاً لشرق افريقيا. وقد انتشرت الإباضية في شمال أفريقيا وأسست دولة قضي عليها عام ٢٩٦ هـ، فالتجأت بقاياها إلى واحات الميزاب في الصحراء. ويجمع جميع الإباضيون «حتى الوقت الحاضر [على أن عمان] هي حاضرة المذهب الإباضي» بالرغم من عدم اشتراط قيام إمام واحد^(٣٠).

ولقد إنتخب أول الأئمة الإباضيين في عمان وهو الجلندي بن مسعود بن جيفر عام ١٣٤ هـ أو ٧٥١ م. ومنذ ذلك الوقت وحتى الفترة الراهنة «خضعت عمان في الزمن القديم للخلفاء الراشدين والأئمة الصالحين منذ ابتداء الدعوة الإسلامية إلى هذا الوقت. وقد يحصل إنقلاب، فيقوم نظام غير نظام الإمامة، ولكنه لا يلبث أن تعود الإمامة»^(٣١). وعلى ذلك فلقد

انتخبت عمان وحتى منتصف القرن العشرين ٦١ إماماً أولهم الجلندي المذكور^(٣٢).

تتمحور الإباضية حول فكرة الإمام، ويعود الإباضيون بأفكارهم حول شروط الإمام العادل إلى أيام الرسول والخلفاء الراشدين، فهم «أهل الطريق القويم، وأهل الصراط المستقيم الذي جاء به محمد ﷺ، وعليه مضى الخليفان الراضيان المرضيان حتى لقياهما»^(٣٣). ويصحح الإباضيون عثمان في صدر خلافته، ويتفقون مع علي حتى حادثة التحكيم حينما «حكم الرجال على حكم أمضاه الله»^(٣٤).

ويرتبط إنتخاب الإمام بالظروف الإجتماعية والسياسية التي تسود في كل فترة زمنية معينة، ويبرز الشخصية المؤهلة لذلك. ونرى أن الكاتب الإنكليزي ويلكنسون المتخصص في بحث نظام الري في عمان (الأفلاج) يربط بين مرور الدورة الإقتصادية بين ذرى وقيعان وبين إننيار نظام الأئمة وقيامه^(٣٥)، فكلما ازدهرت الأوضاع الإقتصادية، ووصلت إلى «ذرى» لإنتاجية الأرض، برزت تغيرات في أنماط ملكية الأرض، والتي تطلق ردات فعل أوتوماتيكية في النظام القبلي وموجة من الإلتلاف حتى يتم الوصول إلى «قاع» يطلق بدوره ردة فعل تجاه إعادة توحيد المجتمع، وتبدأ حركة تجاه «ذروة» جديدة في التنظيم الإقتصادي... الخ. وهذه «الذرى والقيعان» تتصل بالدورات التي أطلق عليها ويلكنسون اسم الدورة الإمامية.

وعلى العموم، فما أن توجد هناك حاجة لبروز إمام من أجل النهوض بمهمات يرى المجتمع العماني ضرورة القيام بها (مواجهة القراصنة الهنود والإمام راشد بن وليد - الهيمنة البرتغالية والإمام ناصر بن مرشد، الأوضاع الإقتصادية المتدهورة والسيطرة البريطانية والإمام سالم بن راشد الخروصي)، حتى يبدأ البحث عن ذلك الإمام القادر والمؤهل لتحقيق تلك

تفاوت مقدرته ونوعية البيعة التي ببيع بها . ولكن يمكن تحديد مهامه على النحو التالي :

١ - الدفاع والجهاد في سبيل الله .

٢ - تحصيل الأموال وجمعها ممن يستطيع ، ودفعها لمن يستحق .

٣ - إقامة الحدود التي أمر الله بها^(٣٦) .

ويتم الإمام الناس يوم الجمعة ، وحكمه هو القرار الفصل في الأمور الدينية . وهو الذي يقود الجيش حين الضرورة ويعين الولاة ويثبت القضاة ، ويبنى الحصون كما كان الأئمة يقيمون الأفلاج ويصلحونها .

ويستمر الإمام طالما تمكن من القيام بمهامه ، وحقق التفاف أهل الحل والعقد حوله . وعلى ذلك فسلطة الإمام مطلقة بقدر ما يمكن لسلطة أن تنشأ وسط مجتمع قبلي ، يعتمد اللامركزية في الإنتاج وفي الإدارة ، ويعتمد التشكيلة القبلية كأساس جوهري لمجمل نظامه . ويستطيع أهل الحل والعقد أن يسحبوا بيعتهم كما منحوها حينما يبرز من ذلك الإمام تقصير أو نكوص عن القيام بمهامه ، فيطلب منه الاعتذار والتوبة ليستمر بعد التغيير أو يترك منصبه . ولربما عين عليه وصي أو يجري استبداله بإمام آخر إذا ما حل به طارئ يعيقه عن مهامه . فلقد تم تعيين نائب للإمام عبد الملك بن حميد الأيادي من أئمة القرن الثالث بسبب ما أصابه من شلل . واستبدل الإمام الصلت بن مالك الخروصي بعد عزله لضعف بصره وسمعه وهو من أئمة نفس القرن أيضاً .

بالرغم من تلك الخطوط العامة إلا أنه ليس بالإمكان أخذها كمقاييس مطلقة للحكم على سائر الأئمة في كل القرون . فلا ريب أن الأئمة الذين أنتخبوا قبل أن تقدم القوى الأوروبية ، كانوا محكومين بالقوانين المحلية والعامة التي تحكم عمان والمنطقة العربية والإسلامية . بينما يختلف الأمر بعد حلول القوى الأوروبية حيث أضحت هناك ظروف أثرت بقليل أو

المهمات في أوساط أهل الحل والعقد والشراسة . « والشراسة جمع شري ، والشراسة في إصطلاحهم لفظ يقصد به جماعة تتركب من أربعين رجلاً فما فوق اشتروا آخرتهم بدنياهم ، بمعنى أنهم تخلوا عن الدنيا وعاهدوا الله على إنكار المنكر والأمر بالمعروف بدون مبالاة ولا خوف من الموت ، ولو أدى بهم ذلك إلى القتال . فهم دائماً يمتحنون الأئمة بما يستدلون به على سرائرهم وخفايا مقاصدهم وأعمالهم »^(٣٦) . ويبدأ التراسل والتشاور بينهم حتى يقر الرأي على الشخص القادر على تحقيق المهمة ، فيتم انتخابه عبر اجتماع يعقده أولئك ، ويشهرونه للناس ليحصلوا على موافقتهم .

وهناك عدة بيعات ، فهناكبيعة إمامة الدفاع ، حيث يبائع من يرى به الشروط العسكرية دون ضرورة تواجد بقية الشروط ، فينتخب لتحقيق هذه المهمة كإمامة راشد بن وليد في القرن الرابع الهجري . وهناك إمامة الإمام الضعيف والذي يختار ويربط بضرورة مشاوره الدائم وخضوعه المستمر لأهل العقد كبيعة الإمام عزان بن قيس عام ١٨٦٨ ، وذلك كما سنفصله فيما بعد . ويختار الإمام الذي تتوفر فيه الكفاية والشروط المطلوبة ليبايعوه على طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ غير ناظرين في ذلك الى بيت أو قبيلة ، بل إلى ما في الشخص من الروح والمقدرة والكفاية . . . فإن قام بالشروط وسار على النهج ، لم يخالف العلماء ولم يرتكب محظوراً فعليهم طاعته ، وكان ولياً مقدساً عندهم ، وإن خالف وتعدى ، خلع ورُفُض وقدموا غيره ، ولا يقبلون ولاية عهد^(٣٧) ، أو كما يقول ابن رزيق بعد أن عدد شروط الإمام « فإن كان هو ، كما قلت ، فاعل فهو الإمام العادل ، وإذا كان لا فهو عن العدل عادل »^(٣٨) . ومهمات الإمام شاملة ، فهو يمارس « المهام الروحية والسياسية والعسكرية مجتمعة بنسب كانت تتفاوت حسب تفاوت أحوال البلاد »^(٣٩) . وذلك حسب ما يقول أول سفير بريطاني في السلطنة ، ويمكننا أن نضيف أيضاً ، وبنسب

بكثير على المهام التي تنكب الأئمة لإجرازها، والتي تمحورت حول مواجهة هذه القوى التي قدمت لتضرب أحد الأسس المركزية التي يركز عليها الاقتصاد العماني والدور العماني ضمن المنطقة العربية والإسلامية، والمتمثل في هيمنة عُمان على البحار الجنوبية والشرقية.

ولا ريب أن الظروف التي أدت إلى بروز الدولة اليعربية والأئمة التي ثبتوا بها تختلف عن تلك التي حلت إثر قيام الدولة البوسعيدية والأئمة الذين أنتخبوا بها أو بمواجهتها. كما أن الظروف السياسية والاقتصادية التي واجهها الإمام محمد بن عبد الله الخليفي في آخر أيامه (حكم من ١٩٢٠ حتى ١٩٥٣) تختلف جوهرياً و كلياً عما شهدته عُمان في سابق تاريخها.

ويحتفظ الإباضيون التقليديون بين كل ما يفرقه عما يروونه مخالفاً لهم، وبالذات إزاء من يختلفون معهم من الإباضيين، بوجهة نظر خاصة تجاه مسألة الحكم الوراثي حيث لا يؤمنون بذلك.

وتشوب المذهب الإباضي مسحة من التسامح تفرقه عن بقية الفرق الخارجية وبقية المذاهب الإسلامية، وفي ذلك يقول المؤرخ العماني الضريع والمرجع الديني الكبير للإباضية عبد الله السالمي «لسنا ممن يزعم أنه أفاد اليوم علماً في القرآن والسنة حتى غلبهم»^(٤١). ويورد أمثلة تبين ذلك إزاء الزواج والتوريث وإعطاء الأمان والفتك بالضالين أو غيرها من نقاط الخلاف، ثم يعود إلى تحديد الفوارق بين الإباضية وبين الشيعة... والخوارج... والمرجئة والفتنة... والبدعية»^(٤٢). ويقول «ونرضى من ملوك قومنا أن يتقوا الله ولا يتبعوا أهواءهم ولا يجحدوا سنة ولا يصروا على ذنب بعد معرفة، وأن يضعوا الصدقة والفيء حيث أمرهم الله... ونرضى من سائر قومنا أن يتقوا الله ربهم ولا يجعلوا حكمه حكماً تبعاً لحكم قومهم وأن لا يتمسكوا بطاعة قوم يعصون الله فإن الله لم يأذن لأحد أن يعطي عهده من يعصى أمره... ليس من رأينا بحمد الله الغلو في ديننا ولا

الغشم في أمرنا ولا التعدي على من فارقنا»^(٤٣). والمعروف عن السالمي أنه كان من غلاة المتشددين في التمسك بأهداب المذهب، وكان وراء الأحداث العاصفة التي شهدتها عُمان أثناء ثورة (١٣ - ١٩٢٠)، وهو الذي مهد لإنتخاب الإمام الخروصي.

إلا أنه من الملاحظ أنه ما أن بدأت عُمان، والدولة الإباضية تجد نفسها أمام معضلات جديدة ومناطق أخرى، تواجدت بعد طرد البرتغاليين، واضطرار الإمام سلطان بن سيف إلى مطاردتهم على السواحل الأفريقية والهندية، وما عناه ذلك من وضع الأسس لقيام الأمبراطورية العمانية الآسيوية الأفريقية، حتى مالت الأمور نحو الأخذ بمسألة الولاية بالعهد وبروز التسلسل العائلي.

ويشير المؤلف روبرت جيران لاندن إلى ذلك حين يقول إن الإمامة القديمة استطاعت أن تحافظ على وجودها بالوقوف ضد كل محاولة للتغيير داخل المجتمع الإسلامي الذي تحكمه، وهذه الفلسفة لم تكن تصلح حسب وجهة نظره كأساس عملي لدولة تهدف إلى إقامة أمبراطورية تجارية واسعة ومجتمع من تجار ينتمون إلى جنسيات مختلفة، ويقول أنه لهذا السبب تغير طابع الإمامة وإن كان بالقوة أيضاً بعد سيطرة اليعاربة على الأجزاء الساحلية من عُمان. حيث إرتبطت زعامة البلاد بالمثل العلمانية للدولة، وضعف إهتمامها بالجوانب الروحية، ويقول أن اليعاربة أنشأوا أسرة حاكمة نشأت عنها تقاليد تسمح للحكام باختيار خلفائهم قبل وفاتهم وبلغ البعض منهم أن يعينوا أبناءهم أئمة على البلاد. ولا شك أن مثل هذا التقليد كان يتعارض مع المبادئ الأساسية للإباضية والخوارج، وهكذا فجّر التوتر بين الحقائق الجديدة والعصبية القديمة أزمة حادة^(٤٤).

ويمكننا أن نلاحظ مجلاء أن ما كان استثناء في الدولة اليعربية (١٦٢٤ - ١٧٤١) أصبح قاعدة فيما بعد. ولكن ظلت المبادئ الإباضية محركاً

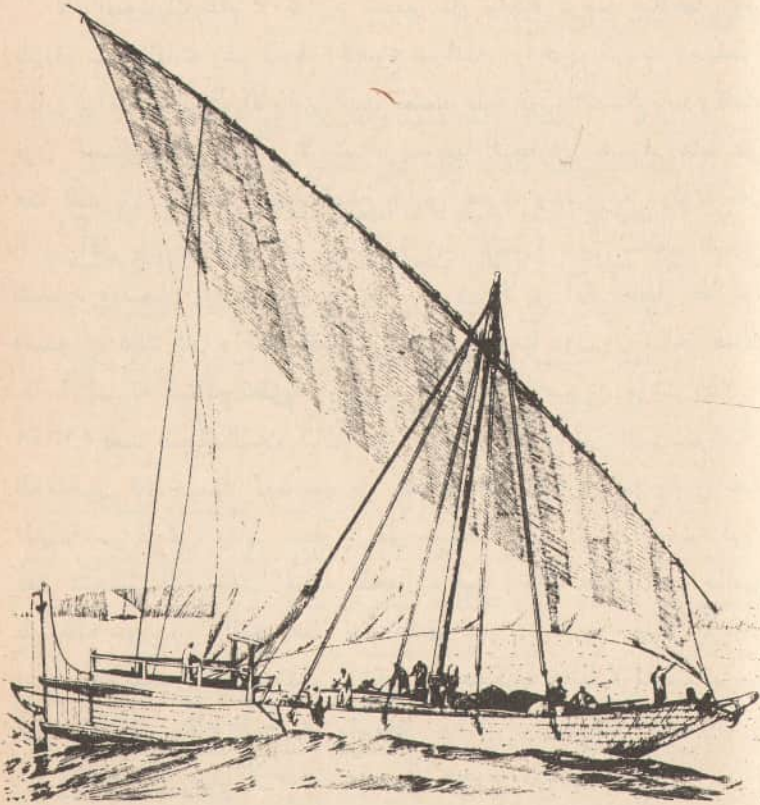
أساسياً وراء كبريات الأحداث ووعاء يستوعب مختلف الصراعات حتى الخمسينات على الأقل. وترافقت التطورات الداخلية الحادة مع دخول البحار المحيطة بعمان في أحداث عاصفة لم ترها من قبل.

فمنذ أن بدأت بريطانيا تنتبه لأهمية الخليج لوقوعه على الطريق المؤدي الى الهند، وهي ذات الأهمية التجارية حينذاك، وهدف النشاط الملاحي منذ خمسة قرون، حتى احتلت عمان موقعاً هاماً في الإستراتيجية التي رسمتها بريطانيا لهذه المنطقة. يقول المؤرخ البريطاني كيلي:

« ليس في وسع أي دولة أن تمارس نفوذاً على منطقة الخليج ما لم تكن تلك الدولة تملك السيطرة على البحار. ولم يتسن لأي دولة أن تمارس مثل هذه السيطرة منذ الخلافة العباسية حتى الآن إلا في فترتين وفي كلتا الفترتين كانت الدولة المسيطرة من الدول البحرية، مملكة البرتغال في القرن التاسع عشر، والإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر^(٤٥) ».

بالمقابل لم تكن هناك من دولة محلية قادرة على لعب دور في مواجهة القوى البحرية الأوروبية سوى عمان. فحتى الدولة الصفوية كانت قوة برية أكثر مما هي قوة بحرية. وكانت الدول الفارسية المتتابعة تتعاون إما مع الدول البحرية على الساحل العربي أن تقوم بإنشاء أسطول معتمدة بشكل أساسي على البحارة العرب الذين يقطنون السواحل الفارسية (الهولة).

ولقد وضعت الإستراتيجية البرتغالية حين قدوم البوكيرك على أساس فرض السيطرة على الممرين الأساسيين اللذين كانت تجارة الشرق تتدفق عبرهما، وهما البحر الأحمر والخليج العربي. وحين أراد البوكيرك مواجهة دولة هرمز والتي كانت تسيطر على سواحل الخليج حينذاك، كان ذلك



تصور لسفينة عابرة للمحيطات استخدمها العمانيون إبان فترة ازدهار قلهاة وهرمز، وهي بنهائيتين متشابهتين ومخاطبة بالحبال، ويبدو في الصورة تطوير الدفة الى تلك المدارة بالحبال حيث أضحت تلك الطريقة سائدة في وقت ما قبل القرن الثالث عشر الميلادي.

يعني أن يواجه «موانئ عمان والتي لم تكن مجرد موانئ تابعة للسيادة الهرمزية، إنما كانت لها أهميتها كموانئ تنطلق منها الأساطيل العمانية للقيام بعملياتها في مختلف أنحاء المحيط الهندي»^(٤٦).

قام البوكيرك عام ١٥٠٧ م بتدمير كل سفينة عربية صادفها، وفي طريقه نهب قلهات رغم قبولها الخضوع لسيادته، وأحرق قريات ومسقط. وكان ثراء مسقط هو الأساس الذي تعتمد عليه قوتها العسكرية، وكانت قوتها العسكرية هي الحامي لاستمرار نشاطها التجاري وهيمنة أهلها على هذا الطريق. وكانت السفن تصلح كسفن تجارية وعسكرية. ولربما كان التمايز أقل بين مهنة الملاحة والتجارة وبين القدرة على التحول السريع للبحارة والتجار إلى مقاتلين حينما تبدو في الأفق أية أخطار طارئة. ويبدو أن ذلك كان واضحاً للعمانيين يمارسونه يومياً دون أن تكون هناك حاجة لبلورته كنتائج نظرية. وحينما قام الإمام ناصر بن مرشد (٢٤ - ١٦٤٩) ضد البرتغاليين كان لديه نوع من الإحساس الغامض بأن البرتغاليين قد حرموا العمانيين من حقوقهم التاريخية في الملاحة في هذه المنطقة من العالم، وأنهم سيطروا على مسقط وبقية المدن العمانية ليس فقط لتحقيق الاستقلال المباشر للخيرات فيها، وإنما لضمان عدم قيامهم باستعادة دورهم، والذي كان يدر عليهم ثروات كبيرة. ولكن لإلحاق الهزيمة بالبرتغاليين كان يتطلب بناء قدرات عسكرية هائلة لا بد لبنائها من قوة هائلة يأتي سلاح البحر في مقدمتها. وهكذا وازن هذا القائد البارز بين التقدم العسكري لإحداث تقدم في هجومه المباشر والعمل لانتزاع حقوق اقتصادية يستغل مواردها لتحقيق الهجوم النهائي على البرتغاليين. ولذلك، ورغم أنه مات ولم يكتمل تحرير عمان كلها منهم، إلا أن الأسس السياسية والعسكرية والإقتصادية لتحقيق ذلك كانت قد أنجزت. وحينما استطاع خلفه أن يحرر مسقط وهي آخر المواقع المتبقية لدى البرتغاليين، كانت لديه القناعة أنه إذا بقي البرتغاليين مهيمنين على الطرق البحرية

عبر المحيط الهندي فإنهم لا بد عائدتين، ولذلك قام بمواصلة القتال على أرجاء المحيط لتحقيق هيمنة عسكرية كاملة.

حافظ البرتغاليون على الأغواط الإقتصادية في الخليج دونما تغيير، ولم يحاولوا تطويرها حيث:

«... أنشأوا القواعد والقلاع في المنطقة، إلا أن استراتيجيتهم كانت تقوم على أساس وضع القسم الأكبر من السلطة في أيدي الحكومات المحلية لتحكم من خلالها بطريق غير مباشر، وبالتالي يتجنبون كل ما كان ينطوي عليه الحكم المباشر من نفقات ومشاكل تعبئة للطاقات البشرية... لم يفعلوا شيئاً لتشجيع التجارة في الخليج... ولم يكن دورهم أكثر من دور السيد المهيمن»^(٤٧)

لقد فرضوا هيمنتهم، وحاولوا فرض سيطرتهم على أنماط الحياة التقليدية في التجارة والحياة ومحاولة الاستفادة منها، وكانوا يمنعون السفن المحلية من الإتجار بين مختلف الموانئ ما لم تكن تحمل ترخيصاً من البرتغاليين^(٤٨). ولقد كانت هذه الهيمنة تعني أخذ فائض كبير من الناتج الإقتصادي لصالح الدولة البرتغالية وحرمان السلطات المحلية منه وبالتالي من الإمكانات الإقتصادية لبناء الأسطول وعملية الصيانة المطلوبة، وهي عمليات كان لا بد للدولة من الإشراف عليها. وهكذا فرضت الهيمنة البرتغالية. وكان على العمانيين أن يملأوا بهذه الطريق قبل أن يستعيدوا السيطرة على بلادهم وهي آخر ما تبقى بيد البرتغاليين في منطقة الخليج.

غير أن البرتغاليين بفتحهم الطريق المباشر بين أوروبا إلى الهند كانوا قد فتحوا الطريق أمام كل القوى الأوروبية لتنقل معها إلى هذه المناطق

كل صراعاتها الدائرة على أوروبا ولتحمل معها كل أطماعها السابقة في الشرق، وفي خياراته والرغبة في منع أبناء المنطقة من القيام بدورهم الطبيعي والتاريخي في التجارة العالمية والتي يؤهلهم فيها موقعهم الجغرافي والتاريخ المشترك.

لم تكن بريطانيا والقوى الأوروبية مهتمة في البداية بالساحل العربي لتخلخله السكاني، مما لا يشكل سوقاً مغرية. وكان العمانيون قد امتلكوا أسطولاً حديثاً مع قيام الدولة اليعربية والتي استمرت حتى ١٧٤١م. كما أنهم أمنوا الحرية للتجارة ولم يفرضوا احتكاراً بعكس القوى الأوروبية، ولكن حينما وصلت طلائع الحملة الفرنسية إلى مصر، قام نابليون بإرسال رسالة لم تصل أبداً إلى يد سلطان بن أحمد البوسعيد، يعرض عليه التحالف. وكان هذا مؤشراً لبريطانيا لتغيير سياستها. وهكذا عقدت في ١٧٩٨ أول معاهدة مع سلطان بن أحمد موجهة ضد الفرنسيين.

عبر هذه المعاهدة وابتداء منها أخذت بريطانيا في عقد سلسلة من المعاهدات أدت عبر عشرات السنين، وباستخدام مختلف أساليب الإكراه والضغط، والإغراء والترغيب إلى إنهاك عمان وتحطيمها والقضاء على الدور الذي كانت هي القوة العربية الوحيدة المؤهلة للعبه بحكم تاريخها البحري، وهو إنهاء السيطرة الأوروبية على المنطقة. إرتدى الخليج أهمية بادية ذي بدء، بسبب وقوعه على الطريق المؤدي للهند، ولذلك أرادت بريطانيا أن تحمي هذا الطريق من القوى الأوروبية ومن القوى المحلية. وبعد بروز الملاحة البخارية برزت أهمية الخليج مرة أخرى حين محاولة الاستفادة من نهري دجلة والفرات للملاحة، وبعد بدء تسيير الخطوط الحديدية، برز مشروع لربط الخليج بالبحر الأبيض المتوسط عبر خط حديدي يمر بولايي بغداد وحلب، وإن لم ينفذ بعد ذلك. وعند اكتشاف طرق الإتصال اللاسلكية كان الخليج من أولى المناطق التي مدت فيها الأسلاك البرقية. وحينما بدأت الدول الأوروبية تتوغل في افريقيا،

وتغيرت سياساتها من اقتناص الأفارقة وإرسالهم كعبيد إلى الأمريكتين ومختلف مناطق العالم، إلى سياسة تستهدف الإبقاء عليهم «أحراراً» في مناطقهم، وبالتالي محاربة تجارة الرقيق. وحينما أرادت بريطانيا أن تؤمن حزاماً آمناً يطوق الهند، وأرادت أن تحد من تسرب السلاح المهرب الى القبائل الأفغانية، كان لا بد لها من أن تفرض حظراً على تجارة السلاح الناشطة في المنطقة. وحينما بدأ استخدام طرق المواصلات الجوية، عاد الجانب العربي من الخليج بامتياز به بعض الظروف الجغرافية ليحتل أهمية متعاظمة في مجال توفير المطارات ومناطق الرصد. ثم كانت اكتشافات النفط والتي جعلت من بريطانيا أن تفعل ما لم تقدم عليه طيلة مدة سيطرتها على الخليج، لقاء الاحتفاظ بكنز جعل من جوهرة التاج البريطاني مجرد حلية مصنعة رخيصة، بل أن هذا الكنز سيمسك بخناق الإمبراطورية ولا يزال.

كانت هذه الظروف وهذه المصالح هي التي حكمت تصرفات بريطانيا في هذه المنطقة ورسمت بالتالي أفق العلاقة مع السلطنة.

وكان أحمد بن سعيد قد أمسك بزمام السلطة إثر انتخابه إماماً عام ١٧٤١ م، وبعد أن نجح في إجلاء الفرس عن عُمان. ولكنه لم يتمكن أن يمد سيطرته لتشمل سواحل عُمان الواقعة على الخليج العربي. وبدأ أن هناك تحالفاً جديداً قد أخذ في التكون نشأ منذ بدايته وفي حالة صراع تناحري مع سلطات عُمان. وكان بروز مثل هذه الصراعات والكتل شيئاً معتاداً ضمن حركة الصراع التي طبعت تاريخ هذه المنطقة عبر القرون، إلا انها كانت تنتهي بتغلب طرف من أطراف الصراع، أو فنائهما وبروز طرف جديد. ولكن لم يكن لهذا الإنقسام ليركز بل ويشكل تربيته عاملاً من عوامل إضعاف للمنطقة عامة إلا عبر تدخل طرف أجنبي، وهذا ما شكلته بريطانيا.

أتى أحمد بن سعيد في نهاية الدولة اليعربية وحينها كان قد برز اتجاهان داخل القوى المسيطرة في عُمان . فكان هناك الاتجاه الذي صار على احتكاك بالامبراطورية المؤسسة على أجزاء من الأمبراطورية البرتغالية ومناطق أخرى ، وكان هناك الاتجاه الذي كان لا يزال يعيش في داخلية عُمان . كان الاتجاه الأول يسير نحو المواءمة بين القوة الاقتصادية للعائلة اليعربية وبين اختيار الإمام ، بحيث أنه ولأول مرة ، تنتخب مجموعة من الأئمة وعلى مدى مائة وعشرين سنة من نفس الأسرة وهذا ما لم يحدث في تاريخ انتخاب الأئمة من قبل وهذا التواتر . وشكل انتخاب ابن الإمام سلطان بن سيف عام ١٧١٨ وهو في سن الثانية عشرة ، إنقلاباً كاملاً في المفاهيم الإباضية للحكم ، بينما كانت قبائل الداخل لا تزال تحتفظ بولائها للمذهب الإباضي بحرفيته . وكان مجيء أحمد بن سعيد يشكل بدوره إنعكاساً للمقاييس التي تحكم نمط الإمام المنتخب . لقد حقق إنتصاراً على الفرس وأرغمهم على المغادرة . ولكنه كان تاجراً كبيراً وانعكست هذه الخلفية في الأساليب الحاذقة والسياسات النافذة التي استخدمها حتى تخلص من التواجد الفارسي ، وهي سياسات لم تكن قريبة كثيراً من الأساليب القتالية والعسكرية الغالبة على سير السابقين ، دون أن يعني أنه لم يكن يمتلك كفاءات عسكرية أو لم يشهد سلسلة من الأحداث القتالية الصاخبة ، وعند وفاته اتخذ ابنه الإمام سعيد بن أحمد بن سعيد من الرستاق مقراً له متجاهلاً الأهمية المتعاضمة التي أخذت مسقط تحتلها في الحياة الاقتصادية والسياسية العمانية ، ولم يمهله ابنه أحمد كثيراً للتفكير في حل هذا المعضل ، إذ سرعان ما استولى على مسقط تاركاً لأبيه السيطرة الروحية أو منصب الإمامة والعيش في الرستاق ، وبالتالي استولى على موارد الجمرك ، وهو الوارد الرئيسي للبلاد ، أو على الأقل في ذلك الوقت ، وكان ذلك في عام ١٧٧٩ . وحين وفاة حمد بن سعيد ، سارع عمه سلطان بن أحمد بن سعيد واستولى على السلطة . وظل الإمام حاكماً حتى ١٨٢٠ بينما ظلت السلطة

تتعاقب في يد من يستولي على مسقط . وبوفاته لم يفكر أحد من المسكين بزمام الأمور في مسقط في إعادة إنتخاب الإمام .

ولكنهم بالمقابل كانوا قد أخذوا يفقدون الكثير من الدعم في داخلية عُمان وضمن القوى المحلية ، وبالتالي ضعف العمق الذي كان يعطيهم مصدراً هائلاً للقوة والمناورة في مواجهة قوى أجنبية شرهة أخذت تطبق قليلاً قليلاً على البحار المحيطة بالسواحل العمانية . كان سلطان بن أحمد قد أخذ يدخل في صراع حاد مع القواسم ومع الوهابيين . ولقد قتل في عام ١٨٠٤ إثر رحلة فاشلة قام بها لتحقيق اتفاق مع العثمانيين لمواجهة الوهابيين ، وكان قد فشل في سفارة ثانية مع شريف مكة لتحقيق نفس الهدف . ولقد كان مقتل سلطان بن أحمد على يد القواسم منطلقاً لهم لشن هجوم واسع على ممتلكات عُمان على السواحل الإيرانية مما أوقعها بين أيدي القواسم فارضين بذلك هيمنتهم على جانبي مضيق هرمز . وهكذا وجد البو سعيد نفسه في صراع مع أقوى قوة بحرية بعدهم في الخليج ، كما كانوا يعيشون في صراع حاد مع الوهابيين الذين كانوا يشكلون قوة برية لا يستهان بها . وتزايدت حدة هذا الوضع حينما تبنى القواسم المذهب الوهابي . ولم تكن الدولة العثمانية ذات فاعلية في منطقة الخليج علماً بأن منطقة عُمان لم تخضع لهم إلا لماماً .

كانت قبائل الداخل تتجمع وتعبر عن المصاعب التي أخذت تعصف بها ، عبر التركيز على خلافات دينية حول طابع السلطة ومسألة الوراثة ، وما يعبرون عنه بالإبتعاد عن المبادئ الإباضية . وكان البوسعيد يعتمدون في صراعاتهم الداخلية على تأييد ضمني للقبائل الهناوية ، ولكن هذا التأييد سيشهد فتوراً مع تواتر السنين وبالذات في سنوات إعادة إنتخاب الإمام عزان بن قيس كما سنرى .

* * *

يقول ديفيد هولي : « أدركت بريطانيا أن عمان هي الدولة الرئيسية في المنطقة ، ورأت أن تحالفها مع عمان يساعد في الحد من القوة المتزايدة التي أخذ القواسم في رأس الخيمة يكسبونها ، مما جعلهم يزعمون الملاحة البريطانية والمحلية في الخليج » ^(٤٩) كانت البضائع تنتقل بين الخليج والهند في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بالسفن الأوروبية والعربية ، وكان تجار مسقط يحصلون على حصة الأسد ، وكان لدى السيد سلطان بن أحمد لوحده مثلاً خمس عشرة سفينة تتراوح حولتها بين ٤٠٠ و ٧٠٠ طن ، وثلاث سفن شراعية كل منها بصاريين ، وكانت كل هذه السفن تقصر نشاطها على مسقط وحدها . أما في صور فكان يوجد أسطول يضم نحواً من ١٠٠ سفينة تتفاوت أحجامها ، ولكنها كانت جميعاً تصلح للملاحة في البحر . وكان حوالي خمسة أثمان تجارة الخليج كلها يمر بمسقط ، التي كانت ترتحل منها السفن إلى البنغال وماليلبار والملايو وزنجبار والحبشة ، « والحقيقة أن عمان في ذلك الوقت (كانت) تسيطر على جانبي الخليج » ^(٥٠) .

وعبر القرن التاسع عشر عقدت بريطانيا سلسلة من الاتفاقيات الاقتصادية والسياسية والتي استهدفت تجريد عُمان من كل أساليب قوتها الاقتصادية والسياسية . أتى الاهتمام البريطاني ليلتقي بظروف برز فيها حكام بحاجة إلى قوة لدعم سيطرتهم على الدولة في وجه أوضاع داخلية صعبة ، وتنافس في أوساط الأسرة الحاكمة نفسها . وهكذا بينما كان سعيد بن سلطان ، وهو أعظم وأقوى من حكم عُمان في القرن التاسع عشر يستهدف من التحالف مع بريطانيا إستعادة سيطرة الدولة على ساحل عُمان ، كانت بريطانيا تفكر على النقيض من ذلك . وهكذا ، وبعد تقسيم عُمان بين الساحل وبقية السلطنة والتي يتبعها جيب رؤوس الجبال المعزول ، ولكن البالغ الأهمية ، قامت بريطانيا بالإجهاز على الإمبراطورية العُمانية الآسيوية الأفريقية ، عبر تحكيم كاننج في عام ١٨٦٢ ، والذي

انتزع من جسم السلطنة زنجبار وتوابعها على البر الأفريقي . وحينما عقدت اتفاقية عام ١٨٩٥ مع السلطان فيصل بن تركي ، تعهدت له بالدفاع عن سلطاته في مسقط ومطرح فقط .

وهكذا ، نرى أن بريطانيا لم تحاول أن تجعل السلطان يفرض سيطرته على بقية عُمان ، ولم تترك بالمقابل الحركة العادية والمستمرة في تاريخ المنطقة أن تأخذ مجراها في إنهاء التجزئة وتحقيق الوحدة . وفيما يخص الصراع مع القوة الوهابية القادمة من قلب الجزيرة ، فإن بريطانيا في الوقت الذي كانت تقيم فيه علاقاتها المباشرة مع الوهابيين ، كانت لا تدعم السلاطين المتعاقبين إلى الحد الذي ينهي التهديد السعودي القادم لعمان ، ولكنها تمنع السعوديين عبر دعمهم للسلاطين وتهديدهم من اجتياح عُمان ، وهي في ذلك لا تحب الأباضية ولا تكره الوهابية ، ولكنها تحشى من قيام دولة ذات قدرة وإمكانات وعمق استراتيجي يجعل من القدرات العُمانية خطراً حقيقياً . ولم تتغير هذه السياسة إلا بعد أن تأكد وجود النفط في داخلية عُمان ، فدعمت السلطان في مد نفوذه الى البريمي .

أخذت بريطانيا قبل إنجاز عملية تجزئة عُمان تعمل بهدوء ولكن بتصميم من أجل تجريد عُمان من قدراتها المالية والإقتصادية ، وتم ذلك عبر القضاء على تجارة الرقيق والتي كانت مصدر إثراء واسع للتجار وللعاملين في الأسطول وعقدت اتفاقيات عديدة أولها عام ١٨٢٢ وآخرها اتفاقية ١٨٧٣ والتي منعت استيراد العبيد في عُمان نهائياً ، وتم إغلاق أسواق بيعها ، ثم التعمد بتحرير أي رقيق يدخل فيما بعد . ولم تكن بريطانيا في عملها هذا تستهدف حماية الأفارقة ومقاومة تجارة الرق لأسباب إنسانية ، وهي التي عملت مدى العقود من أجل ترحيل مئات الألوف من سكان غرب أفريقيا الى أميركا ، ولكنها كانت تستهدف إبقاء سكان شرق ووسط أفريقيا في مناطقهم لاستخدامهم في العمل بعد أن توغلت في الداخل ، كما

أن القضاء على تجارة الرقيق كان خير ضربة توجه لتجار عُمان ، دون أي اهتمام لكي لا يسبب ذلك في إنهيار الإقتصاد العُماني ، والذي كان هو هدف بريطانيا العزيز .

وتكفلت السفن البخارية البريطانية ، بالقضاء على دور التجار العُمانيين التقليدي في نقل البضائع بين مختلف مناطق المحيط ، فأخذت تحل شيئاً فشيئاً مكان السفن العمانية . ولم يعد هم السفن البريطانية ربط الهند بأوروبا ، بل بالقيام بأعمال النقل والتجارة بين مختلف مناطق المنطقة نفسها . وبعد ذلك جرى التوجه لضرب تجارة السلاح ، والتي كان العُمانيون أبرز من يقوم بها أيضاً . وعبر مجموعة من الإجراءات والإتفاقات مع سلاطين مسقط تم الإتفاق على حصر عمليات تجميع السلاح ، وإعادة توزيعه في مخزن واحد بمسقط تحت إشراف البريطانيين وتم دفع تعويض للسلطان لقاء الإتفاق ، وذلك أثناء الحرب العالمية الأولى . وعبر هذه الإجراءات « تحول أسطول عُمان إلى كومة من الهياكل الخشبية القابعة في مراسيها » ، على حد وصف المؤرخ البريطاني كيلى^(٥١) .

وقيدت بريطانيا السلاطين المتعاقبين بمجموعة من الإتفاقيات السياسية التي عقدتها معهم ، بدءاً من اتفاقية ١٧٩٨ . فعدا عن الإتفاقيات ذات الطابع الاقتصادي والتجاري ، عقدت اتفاقية ١٨٩١ مع فيصل بن تركي والتي تعهد بموجبها عن نفسه وعن ورثته وخلفائه « بعدم تأجير وبيع ورهن أو إعطاء للاحتلال أي أرض من مسقط وعمان أو من توابعها عدا للحكومة البريطانية »^(٥٢) . وحافظت بريطانيا فيما بعد على شكليات معينة في علاقاتها مع مسقط ، وذلك بسبب اتفاقية سبق توقيعها مع فرنسا عام ١٨٦٢ بالمحافظة على حياد مسقط وزنجبار . ولكنها نقضت هذا الإتفاق بتحويلها زنجبار الى محمية رسمياً ، بينما تركت عمان دونما تغيير معتمدة على أساليب أخرى لتحقيق نفوذ عالٍ عليها . وحينما ضاق فيصل بن تركي

إزاء تلكؤ البريطانيين في دعمه لمواجهة هجمات قبائل الداخل ، وحاول التقرب من الفرنسيين عبر قنصلهم في مسقط المسمى « بتوفي » ، فعقد اتفاقية معهم تعطيهم الحق في إنشاء مستودع لهم في رأس الجصة ، قام البريطانيون بتهديده وإرغامه على فسخ الاتفاق عام ١٨٩٩ .

وتظهر المساعدات التي قدمتها بريطانيا لعُمان شكلاً آخرًا من أشكال الهيمنة التي تمارسها أوروبا والدول الكبرى للدول الأخرى تحت شعار الدعم لتحقيق التنمية والتطور ، بينما تصب هذه المساعدات فعلياً في مصلحتها بشكل مؤكد . فبعد أن أنجزت بريطانيا الإجهاز على قوة مسقط الذاتية وحطمت أسطولها وقسمت أمبراطوريتها ، أخذت في تقديم مساعدات مالية شكلت عاملاً آخرًا من عوامل الإضعاف وتحقيق الهيمنة . تمثلت المساعدات الأولى في مبلغ يدفعه سلطان زنجبار بسبب قبوله لتحكيم كاننج لعام ١٨٦٢ والذي أقر فصل زنجبار . إلا أنه بسبب الأوضاع المتدهورة مالياً والتي انتهت إليها زنجبار بسبب السيطرة البريطانية ، فان السلطات البريطانية أخذت في دفعها عبر حكومة الهند ، ومن ثم عبر وزارة الخارجية . وتبلغ تلك المساعدة ٤٠٠ ، ٨٦ ريال . كما قدمت إعانة للسلطان لقاء موافقته على حصر تجارة السلاح عرفت بإعانة السلاح ، وقد دفعت بين ١٩١٤ إلى ١٩٣٥ وقدرها ١٠٠ ، ٠٠٠ روبية هندية . وشهدت عقود القرن العشرين الأولى تقديم قروض ومساعدات أخرى^(٥٣) ، مما جعل مسقط في وضعية مالية رديئة .

وعلى العموم كان النفوذ البريطاني قد وصل في العشرينات إلى حد كبير من التغلغل والشمول ، ويصف الكاتب الأميركي بيترسون الوضع فيقول بأن البريطانيين كانوا :

« ... قد حصلوا على امتيازات وحقوق داخل عُمان ، ومنعوا تسليم أراضي الدولة لأي قوة أخرى ، وأملوا شروط

اتفاق السلام مع قبائل الداخل [شروط اتفاقية السيب]،
وهيمنوا على الأوضاع المالية في السلطنة عبر القروض
والهبات. كما أن السيطرة العسكرية عبر تواجد كتيبة من
الجيش الهندي، والسيطرة السياسية عبر وجود أحد
الانكليز، هو حاكم الدولة، في الواقع، كما إن القرارات
لإصدار ضرائب، أو لاتخاذ إجراءات كعقاب ضد القبائل
المتردة كانت كلها تخضع لمراجعة الوكيل السياسي
بمسقط» (٥٤).

هوامش:

(١) أبو سليمان بن محمد بن عامر بن راشد المعولي، قصص وأخبار جرت في عُمان،
تاريخ التأليف غير معروف، ولكنه قبل ١٩١٤. تحقيق عبد المنعم عامر. عُمان:
وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٧٩، ص ١٩.

(٢) المعولي، ص ١٩.

Geoffrey Bibby. looking for Dilmun. N.P. : Library édition, 1973, (٣)
p. 359.

(٤) تاريخ أهل عُمان. تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ربما ألف عام
١٧٥١م. عُمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٠، ص ٤١.

Jholm TOWNSEND. Oman. London: Groom Helm, 1977. P. 15.) (٥)

(٦) م.ن. ص ١٦.

Trade and Travels Publications. The Gulf Handbook, 3rd edition. (٧)

Independent Team of Arabists and Journalists. Trade and Travel
Publications, Bath, England, 1979, P. 418.

(٨) الدكتور عبد الرحمن عبد الكريم العاني، عُمان في العصور الإسلامية الأولى،
ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي وفي الملاحة والتجارة الإسلامية.
رسالة دكتوراه. بغداد، دار الحرية، ٧٦ - ١٩٧٧. ص ٣١.

(٩) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري. عدن: لجنة نشر
الكتاب اليمني، ١٩٧٧، ص ١٢٢.

(١٠) م.ن. ص ١٢٩.

(١١) العاني ، ص ١٣٣ .

(١٢) م.ن. ، ص ٥٩ .

(١٣) عامر علي عمير المرهوي ، عُمان قبل وبعد الإسلام . محاضرة أُلقيت بهرجان العالم الإسلامي بلندن (ابريل - يونيو ١٩٧٦) . عُمان : وزارة التراث القومي والثقافة ، أكتوبر ١٩٨٠ . ص ١٠ . وما بعد .

(١٤) م.ن .

(١٥) العاني ، ص ٧١ - ٧٢ .

(١٦) م.ن. ، ص ٨٠ .

(١٧) م.ن. ، ص ٨٦ .

(١٨) م.ن. ، ص ٨٨ .

(١٩) حميد بن محمد بن زريق ، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان ، ١٢٧٤ هـ . تحقيق عبد المنعم عامر . عُمان : وزارة التراث القومي ، ١٩٧٨ . ص ١٢ وما بعد .

(٢٠) العاني ، ص ٩٠ .

(٢١) يجري الدكتور محمد متولي مقارنة بين الخليج العربي والبحر الأحمر ، فيقول بأن كليهما هو امتداد داخلي للمحيط الهندي يتغلغلان في قلب العالم القديم ويمتدان في قلب اليابسة كذراعين متوازيين من المياه البحرية الداخلية ، وينتهيان في طرفيهما الشمالي عند خط عرض واحد تقريباً هو خط عرض ٣٠ شمالاً . وكلاهما يتصل مع المحيط الهندي عن طريق بوزاين ضيقين وينتهيان من طرفهما الجنوبي بخليج عظيم . ويحتلفان في أن المنطقة اليابسة بين الخليج والبحر المتوسط أكبر بكثير منها عند البحر الأحمر ، وبالتالي فإن الرحلة البرية التي تواجه طريق التجارة القادمة من الخليج أطول . كما أن هناك القبائل الفارسية والعربية والتي قد تهدد خط نقل البضائع عبر الخليج ، كما أن الخليج شديد الحرارة والأحوال الصحية به سيئة . أما البحر الأحمر فبه الشعب المرجانية وسواحل مجدية ولا تكتنفها الحياة السكانية . ورغم ذلك فإن الخليج ظل معبراً للتجارة أكثر من البحر الأحمر . حوض الخليج العربي . القاهرة : مكتبة الأنجلو - مصرية ، ١٩٧٥ . الطبعة الثانية ، ج ١ . ص ١٣٢ .

(٢٢) العاني ، ص ١٣٢ .

(٢٣) م.ن. ، ص ١٣٣ .

(٢٤) م.ن. ، ص ١٣٩ .

(٢٥) م.ن. ، ص ١١٣ وما بعد .

(٢٦) أبي بشير محمد شيبه بن نور الدين عبد الله بن حميد السالي . نهضة الأعيان بحرية عُمان . القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٣٨٠ هـ ، تاريخ انتهاء التأليف من الكتاب . ص ٦٢ .

(٢٧) عائشة علي السيار . دولة اليعاربة في عُمان وشرق أفريقيا . بيروت ، دار القدس ، ١٩٧٥ ، ص ١٠٧ .

(٢٨) الدكتور نايف محمود معروف . الخوارج في العصر الأموي . رسالة دكتوراه . بيروت : دار الطليعة : ١٩٧٧ . ص ٢٣٩ .

(٢٩) الشعاع الشائع ، ص ١٠٧ .

(٣٠) السيار ، ٧ - ١٠٨ .

(٣١) محمد السالي ، ص ٦٣ .

(٣٢) محمد السالي ، ص ٦٦ .

(٣٣) الإمام نور الدين بن حميد السالي . تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان . قام بتصحيحه والتعليق عليه ، أبو اسحاق ابراهيم أطفيش الجزائري الميزاني . القاهرة : مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، ١٩٦١ . ص ٥٤ .

(٣٤) م.ن .

(٣٥) جي . سي . ويلكنسون «التغيرات في بناء الحياة القروية في عُمان» ، بحث قدم للمؤتمر الافتتاحي لمركز دراسات الخليج العربي في جامعة أكستر ببريطانيا المنعقد بين ٩ - ١٣ تموز ١٩٧٩ . وقد نشر البحث ضمن كتاب صدر بالإنكليزية بعنوان التطور الإقتصادي والإجتماعي في الخليج العربي ، عام ٨٠ ، من تحرير تيم نيبلك ، مدير المركز . والإشارة هنا مأخوذة من ترجمة مطبوعة .

(٣٦) السيار ، ص ١١٤ - ١١٦ .

(٣٧) محمد السالي ، ص ٦٢ .

الباب الثاني

«ونحن أهل المشرق... بحمد الله نعظم علماءنا وننقاد
إلى أقوالهم وأحكامهم لأنهم بالمنزلة العليا في العلم والورع،
والجاهل منا يعظم العالم ويحترمه، بل ونحترم علماء
المغرب».

من رسالة جوابية للإمام الخليلي أرسلها
لأباضية المغرب.

(٣٨) الشعاع الشائع، ص ١١.

(٣٩) دونالد هولي. عُمان ونهضتها الحديثة. مؤسسة ستاسي الدولية في لندن.

ل.ت.

(٤٠) السيار، ص ١١٨.

(٤١) عبد الله السالمي، ص ٥٥.

(٤٢) م.ن. ص ٥٦ - ٥٧.

(٤٣) م.ن.

(٤٤) روبرت جيران لاندن. عُمان منذ ١٨٥٦. ترجمة محمد عبد الله. صحافيا،

ل.م. ١٩٧٠. ص ٥١.

(٤٥) جون ب. كيلى: بريطانيا والخليج (١٧٩٥ - ١٨٧٠)، ترجمة محمد أمين

عبد الله. عُمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٧٩ ج ٢. ص ٧.

(٤٦) هولي، ص ٢٨.

(٤٧) لاندن، ص ٢٦.

(٤٨) هولي، ص ٣٠.

(٤٩) م.ن. ص ٤٦.

(٥٠) م.ن. ص ٤٥.

(٥١) كيلى، ج ٢، ص ٧٦٠.

(٥٢) Peterson, P. 143.

(٥٣) م.ن. ص ١٤٣.

(٥٤) م.ن. ص ١٤٨.

الباب الثاني

باب البيعة

عزان بن قيس هو ابن قيس بن عزان بن قيس بن أحمد بن سعيد البوسعيدي. وقيس ابن أحمد بن سعيد هو أحد سبعة أبناء للإمام أحمد بن سعيد، وهم محمد وطالب وسلطان وسيف وسعيد وقيس وهلال. وكان قيس بن عزان يحكم صحار على الساحل العُماني ثم استبدلها بالرساق. ولقد قتل إثر مشادة كلامية مدبرة مع أحد ولاة ثويني بن سعيد وانتهت بقتل الوالي وقيس، وبالتالي آل الحكم لأبنه عزان الذي غادر مقله في الرساق للثورة ضد ثويني^(١). وكان ذلك في عام ١٨٦١.

وكانت عُمان قد شهدت بين ١٧١٨ و ١٧٤١ حرباً أهلية دامية أدت إلى تدخل الفرس في شؤونها الداخلية ولعبها بين الأطراف المتنازعة. ولقد استعان الإمام سيف بن سلطان وهو آخر الأئمة اليعاربة بأحمد بن سعيد بن محمد بن سعيد البوسعيدي لمواجهة أحداث تلك الفترة. ويصف صاحب الكشف المبين ما حدث على النحو التالي:

«... ولم يزل [أحمد بن سعيد] يترقى معه [أي مع الإمام] من مرتبة إلى مرتبة، فلما رآه أهلاً للولاية ولاه مدينة صحار وأعمالها. فأظهر العدل والإنصاف بين الرعية، وفشا إحسانه وكرمه إليهم، فأحبوه حباً شديداً،

وأنته قبائل الشمال والظاهرة أفواجاً أفواجاً، وفرادى وأزواجاً، فأكرمهم وأحسن إليهم، والآن الجانب للغني والفقير، والبصير والضرير، وأظهر الباشة للكبير والصغير، وبالغ في إكرامهم... وسرى صيته في البلاد، وأذعنت له الناس بالإنقياد، وأظهر العدل فأثنت الألسنة. فلما بلغ صنيعه ذلك إلى الإمام سيف بن سلطان قال لبعض خاصته: والله ما فعل أحمد بن سعيد هذا إلا لينفر الناس مني، ليجعلهم إليه، وأنه يحاول بهذا الشأن ليصير ما صار إلي إليه»^(٢).

وكأنما كان سيف بن سلطان يتنبأ بما سيحدث. ومن ذلك الحين بدأت المناوشات والاختلافات بين الإمام وواليه. ولكن الوجود الفارسي كان هو أبرز الأمور والمصاعب التي كانت تخيم على الجو العام في البلاد وهذا ما عمل أحمد بن سعيد على التخلص منه وجعل من صحار قاعدة للمقاومة، فقام «العجم المعسكرون بصحار [و] حصروها حصراً شديداً، وقطعوا المواد عن المتحصنين والصور. فكان... المحاصرين لحصن صحار ستون ألفاً، وفي كل يوم يخرج عليهم أحمد بن سعيد عن عنده من الرعية فيبلغ مراده منهم»^(٣). وتمكن أحمد بن سعيد من الخلاص من الفرس وتبوأ بذلك موقعاً هاماً مكّنه من تسلم منصب الإمامة. وبذلك برزت أسرة البوسعيد في حكم عُمان.

* * *

ويُعد سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد أعظم من حكم عُمان من الأسرة في القرن التاسع عشر، وقد حكم لما يُقارب نصف القرن (١٨٠٦ -

(١٨٥٦)، وكان آخر من أمسك بزمام الممتلكات العُمانية المتحدة على الشواطئ الأفريقية والآسيوية. وبالرغم من أنه كان أقوى من حَكَم عُمان، إلا أن عهده شهد وضع الأسس للسيطرة البريطانية، ولتفكيك الدولة، وتحطيم الأسطول، ويقف الانكليز وراء ما حدث. وتشكل دراسة سيرته سرداً ثرياً لكيفية قيام اندول الكبرى بخداع حلفائها، وجعل تحالفهم معها وسيلة لإضعافهم والتغفل في مواقع سيطرتهم. ولا يكاد يشارف عهد هذا الحاكم على الانتهاء، حتى يجد خلفاؤه أنفسهم في حالة يصعب الاختيار فيها، ويجدون أنفسهم مضطربين للبدء من حيث ما انتهى السابقون، وليس من حيث ما بدأوا، أي من مواقع الضعف أكثر مما يبدأون من مواقع القوة، في علاقاتهم مع القوة الأجنبية.

بدأت أولى العلاقات مع بريطانيا، أثناء عهد سلطان بن أحمد الذي شهد عهده (١٧٩٣ - ١٨٠٤) تنافساً دولياً كبيراً، وبالذات أزاء تحركات نابليون ورغبته في تعقب الانكليز. وأرسل نابليون رسالة إلى سلطان بن أحمد لتحقيق نوع من التحالف، مما دفع الإنكليز إلى مغايرة سياستهم السابقة التي كانت لا تقيم كبير وزن للسواحل الغربية من الخليج، بسبب قلة سكانها ومحدودية أسواقها وأيضاً بالنظر إلى عدم وجود أية سلعة أو مواد خام مغرية. ولقد نتجت توجهاتهم الجديدة عن عقد اتفاقية كانت موجهة أساساً ضد الفرنسيين. ولكنها كانت مقدمة لكي تحسب بريطانيا وحكومة الهند أن ما يجري في مسقط يجب أن يكون متناغماً، وسياسات بريطانيا وحكومة الهند. ولكن ظلت العلاقات إلى حد كبير ضمن نطاق التحالف بين دولتين.

تولى سعيد بن سلطان الحكم عام ١٨٠٦، ووجد نفسه في وضع داخلي صعب، فهو قد أتى، على أية حال إثر مقتل بدر بن سيف الذي أمسك بدوره بالسلطة إثر اغتيال سلطان بن أحمد عام ١٨٠٤. وارتبط ذلك

بالصراع الذي نشب مع المركز في الجزيرة العربية، ومع القوة البحرية الفتية التي تبنت المذهب الوهابي، وهي قوة القواسم، مما أضفى على الصراع طابعاً مذهبياً، وأعطى لحركة القواسم عمقاً عقيدياً وعسكرياً من قلب الجزيرة العربية. وباتوا يشكلون الذراع المسلح للقوة الوهابية في مياه المحيط الهندي وبحر العرب.

والتفت سعيد بن سلطان إلى الانكليز للدعم والمساعدة مقابل التحالف معهم، وهو يأمل من ذلك أن يستعين بقوة عسكرية تعينه على إعادة لحمه عُمان إلى سابق عهدها داخلاً وساحلاً، وأن يتمكن من الوقوف بوجه توجهات المركز. وإذا كانت هذه أهداف سعيد بن سلطان، فإن أهداف الإنكليز كانت تتقاطع وتلك الأهداف ولكنها تتجاوزها. ومرة أخرى نعود إلى مسألة التحالف مع القوى الأوروبية الكبرى حيث يظهر منهم جانباً أو اثنان يجعل حلفاءهم يقعون في المحذور، ويجعلون مصيرهم مرتبطاً بها معتقدين في ذلك الإعتقادات الخاطئة، و متمسكين بأوهام غير حقيقية. وليس الخطأ في إقامة العلاقات مع الأجانب بقدر ما أن ذلك يتوجب النظر ضمن تلك العلاقة ومدى صحتها للمصلحة الخاصة بالبلد نفسها، وفيما إذا كانت تلك العلاقة ستقوي الدولة أم تضعفها، وما إذا كانت ستؤدي بالأجانب إلى مزيد من التدخل في أمور البلد أم لا، وما إذا كانت ستوجه ضد قوى عربية أو إسلامية أو مجاورة أخرى أم لا.

على أية حال، يتحدث المؤرخ العماني عبد الله السالمي واصفاً طبيعة التحالف الذي قام بين سعيد بن سلطان والإنكليز (ويسميه النصارى، حيث لا يوجد هناك نصارى بعُمان غير الأوروبيين وربما بعض من نصارى الهند المرتبطين بهم)، فيقول:

«وكذلك استعان السلطان بالنصارى على حرب أهل الشارقة من أرض الشمال فقهر بهم عدوه، وكانت هذه

الإستعانة منه أول سبب تدخلت به النصارى في ممالك المسلمين من أهل عُمان، فبقوا آفة في ذراريه وعة في مملكته يظهرون الصداقة ويضمرون العداوة، وأن أنكى الأعداء من يأتيك في صورة صديقك يظهر محبتك، ويضم هلاكك»^(٤) «التخطيط من عندي».

أما سالم بن حمود السيالي، صاحب إيضاح المعالم في تاريخ القواسم، فيرى أن سعيداً قد فعل ذلك في محاولة لإختيار أهون الشرين ومواجهة أعظم الخطرين، فيقول بأن سيد مسقط قد وعد البريطانيين بالمعونة الكافية:

«لأغراض في نفسه كان يأملها، ونوايا في قلبه كان يكتنها، وإذا رأى الفرصة لا يضيعها، وقد رأى الوهابيين يزدحمون على عُمان بطلق وجهه والجنود المصرية تحاول اجتياح الساحل وقد وصلت القطيف، مع اعتقاده بأن القواسم بدأوا بالشر إذ قتلوا أباه، ورأى الصوت العالي في هذه الأطراف لبريطانيا، ورأى الإلتفاف حول ركبها وإن كان يحس منها لفتح وهج، ولكن عاجل الضرر أحق بالعلاج من أجلهما»^(٥) «التخطيط من عندي».

وربما كان سعيد بن سلطان على دراية بأجل الضرر، ولكنه لم يكن قد أعد العدة لمواجهة، وهذا أمر لا يزال ساري المفعول في العديد من بلاد العرب، حيث تجري التحالفات دون أن يعد الجانب العربي نفسه لمرحلة إنتهاء التحالف مع الأجنبي، وربما زاد على ذلك الوضع فأصبح على الحليف الأوروبي ما يظهره بعيداً عن التغير والتحول.

توفي سعيد بن سلطان تاركاً ستة وثلاثين من الأبناء نصفهم من الذكور، (وتروي ابنته أنه قد وُلد لأبيها ما قدرته بمائة من الإناث والذكور قبل وفاته)^(٦). وبعد وفاته ثار الشقاق بين أولاده الثلاثة ماجد وثويني وتركي. وانتهى الأمر بتولية ماجد على زنجبار وثويني على مسقط، وأبعد تركي إلى بومي بوساطة بريطانية. واستمر ثويني حاكماً لمسقط وبقلبه توق لإعادة المملكة بجناحيها الأفريقي والآسيوي، وحينما حاول أن يخرج بأسطوله لتحقيق ذلك أوقفته السفن البريطانية قبالة رأس الحد على سواحل عُمان، ونصبت من نفسها حكماً بين الأخوين، ثم حكمت بتقسيم المملكة.

وفي عام ١٨٦٦ قام سالم بن ثويني باغتيال والده باطلاق النار عليه. وهناك روايات عديدة لأسباب ذلك الحادث وطريقة تنفيذه، ليست هذه الصفحات موضعها^(٧). ولكن مما لا شك فيه أن هذا الحدث قد أضعف من مصادر القوة التي كان يمكن للحاكم الجديد أن يتمتع بها. وكان والد الحاكم الجديد أو ثويني بن سعيد قد أخذ يعد العدة بعد مقتل قيس بن عزان لمواجهة عزان بن قيس الذي تحالف مع السعوديين^(٨)، وإن كان سيظهر فيما بعد عداءً حاداً لهم. وقد أدى ذلك التحالف إلى أن يتراجع ثويني عن نيته في مهاجمة عزان بن قيس.

ثارت قبائل الجنبه وهي قبائل تقطن إلى الجنوب من مسقط وهاجمت مدينة صور الساحلية، وهاجمت بعض التجار من الهنود الذين كانوا تحت الحماية البريطانية. وكانت تلك المنطقة تشوبها التأثيرات الوهابية. ولقد قام الإنكليز بإنذار السعوديين وعدوهم مسؤولين وطالبوهم بالتعويض عن تلك الخسائر، ولما تأخر السعوديون قامت السفن البريطانية بمهاجمة القطيف وقصف قلاعها. وكان ثويني يعد العدة لمهاجمة الوهابيين وحصل على الإشارة الخضراء من الإنجليز، ولكن مقتله أوقف هذه الإستعدادات. إعترفت بريطانيا بسالم بن ثويني حاكماً على عُمان في أيلول ١٨٦٦،

بينما كان يواجه معارضة عمه تركي بن سعيد ، وتمكنت بريطانيا من إقناع الأخير بمغادرة عُمان وذلك عام ١٨٦٧ لقاء راتب من أخيه على أن يبقى تحت أعين السلطات البريطانية في بومبي .

ومع مجيء سالم بن ثويني تبرز في الأفق مشاكل جديدة ، فمجد بن سعيد بن سلطان يفتنم تلك المناسبة للإعراب عن عدم موافقته لدفع ما يسمى بتعويض زنجبار لحاكم تجراً على قتل والده ، ولكنه يعود عن قراره ويوافق على أن يدفع المال للبريطانيين الذين يقومون بدفعها بدورهم إلى سالم . وتفتنم سلطات فارس الفرصة ، وتلغي الإتفاقيات القائمة والخاصة بنندر عباس وغيرها من المناطق التي كانت خاضعة للسيطرة البوسعيدية ، تحت حجة أنها قد أقامت مع السلطان الشرعي ، ولكنها عادت واتفقت مع سالم عبر بريطانيا . وعلى المستوى الداخلي ، وجد سالم نفسه في خلاف مع صالح بن علي الحارثي وهو زعيم قبيلة الحرث ، إحدى ركائز الهناوية وصاحبة الثقل العسكري الكبير بينها . وكان صالح بن علي ، على وفاق مع سالم ثم اختلفا وقد دبر سالم مؤامرة للقبض على صالح بن علي ، مما جعل الأخير ينحاز إلى المناهضين له .

كانت الأمور كلها تدفع باتجاه متغيرات سببتها تراكمات على مدى السنين ، وقد أخذت قبائل الداخل تحس بوطأتها على شكل شحة في مواردها . لقد تمكن البرتغاليون بفضل الجهاز الإداري والتوجيه السياسي الإقتصادي المنظم ، وبفضل التطور الذي طرأ على صناعة السفن والأسلحة وبدافع الروح الصليبية التي قدموا بها ، من السيطرة على البحار العربية عام ١٥٣٠ . كما تمكنوا بفضل سلسلة من الهجمات المدمرة على النقاط الإستراتيجية في المحيط الهندي أن يخضعوا الشرق كله لسيطرتهم . وكان الهدف من السيطرة على النقاط الاستراتيجية (بما في ذلك هرمز) هو السيطرة على التجارة واحتكارها وبصورة خاصة السلع الكمالية . وقد

طلبوا إلى السفن المحلية ، بما فيها سفن اليمن ، وسفن عرب الخليج أن تحمل تصاريح من السلطات البرتغالية وإلا تعرضت للهجوم والمصادرة . وقد تسببت هذه السياسة في تحول الحركة التجارية من طريق المواصلات عبر السويس والبحر إلى الطريق المهمل حتى ذلك الوقت أي إلى الطريق الذي يدور حول الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية إلى ساحل المحيط الأطلسي في أوروبا . وهكذا خفت حدة النشاط التجاري عبر الشرق الأوسط ، وبدأت المنطقة تعاني تدهوراً اقتصادياً ، ما لبث أن تطور إلى كارثة إقتصادية شاملة في منتصف القرن السادس عشر ، عندما أخذت شحنات الذهب والفضة الرخيصة تتدفق على العالم الجديد لتقوض التركيب المالي للمنطقة في ذلك الوقت . وعلى الرغم من أن طرق المواصلات القديمة ظلت محتفظة بنشاطها ردىاً من الوقت ، إلا أن السفن الأوروبية بدأت في نحو ١٦٢٦ وذلك بعد مضي نحو قرن على سيطرة البرتغاليين على المحيط الهندي تقوم بنقل البضائع إلى بلاد الشام ، وهي نفس « البضائع التي كانوا قبل مائة عام يشترونها من تلك البلاد »^(١) .

وهكذا قُضي على الدور البحري الذي كانت عُمان هي القائمة به أساساً على مر العصور . وحينما استجمع العُمانيون قواهم وطرّدوا البرتغاليون من أراضيهم ومن العديد من الأراضي والسواحل المحيطة بالمحيط الهادي وجدوا أن تلك السواحل والأراضي قد أصبحت تضم مواقع يتحكم فيها الأوروبيون من مختلف الأجناس . ومع إنهيار الدولة اليعربية . وقيام دولة البوسعيد ، عاد العُمانيون وثبتوا سيطرتهم على مختلف المناطق التي كانت قد خضعت لليعاربة والتي كانت وبالرغم من السيطرة الأوروبية ، إلا أنها كانت توفر لهم جزءاً هاماً ومؤثراً من الحيز العام للمواصلات والخدمات التجارية ، ولقد استفادوا في ذلك من التناقضات البريطانية الفرنسية بشكل أساسي ، واستفادوا كذلك من التوجه الأميركي في العقود الأولى من القرن الماضي ، لإقامة مناطق تجارية تأقي زنجبار في مقدمتها . وعاد

الأسطول العُماني ليزدهر . ويعلق مندوب الرئيس الأميركي الذي ذهب وتمكن من توقيع اتفاقية بين الولايات المتحدة وسعيد بن سلطان بقوله : بأن الولايات المتحدة قد أصبحت مرتبطة بصدقة إحدى القوى الآسيوية التي تفخر « بامتلاكها أسطولاً أكبر من الأسطول الأميركي ، إذ كان مؤلفاً مما لا يقل عن (٧٥) سفينة ، كلاً منها مزودة بعدد من المدافع يتراوح بين ٤ - ٥٦ مدفعاً » . وقد لاحظ روبرتس أيضاً بأن السفن العُمانية التجارية كانت تصل « حتى الهند وسيلان وجاوا »^(١١)

ولكن الأمور لم تعد كما كانت سابقاً ، فلقد حل البريطانيون أساساً وبقية الأوروبيين على السواحل والطرق والجزر ، وأصبحت الدول الأوروبية وفي مقدمتها بريطانيا المهيمن الأول والحكم الفرد والناهب الأكبر ، وبعدها تنافس الفرصة فقط للمنتجين الشرعيين والقائمين على خطوط التجارة بممارسة دورهم الذي أنشأوه وأشاعوا السلم على جنباته على مدى القرون . وهكذا ما أن انتهت مرحلة الحرب الأهلية ١٧١٨ - ١٧٤١ ، واستعاد العُمانيون شيئاً من الوحدة والتآسك واستعادوا السيطرة على الإمبراطورية التي أقامها اليعاربة ونشطت حركتهم التجارية حتى وجدوا أنفسهم يواجهون إنقساماً داخلياً عميقاً وعنيفاً أتت بريطانيا لتكرسه وتحميه ، وانفصل ساحل عُمان عن بقية البر العُماني . وما أن انتصف القرن حتى أنجزت بريطانيا فصل أغنى الأجزاء وأكثرها إداراً ضمن الممتلكات العُمانية ألا وهي زنجبار ، والتي كانت تعني في الحقيقة مجمل السواحل بأفريقيا وداخليتها . وترافق ذلك مع تدهور الوجود الفرنسي تدريجياً لصالح بريطانيا وإضمحلال إمكانية الاستفادة من تلك الهوامش التي كان بالإمكان للملاحة العُمانية أن تستفيد منها . وكان سعيد بن سلطان في آخر أيامه قد سرح الأسطول وأهدى جزءاً منه لبريطانيا ، بعد أن تدخلت بريطانيا بين القوى البحرية المحلية المختلفة ومنعتها من الإستمرار في حركة الصراع إلا ضمن ما تقننه بريطانيا نفسها . وآل ما



سعيد بن سلطان

تبقى منه بغالبيته إلى ما جد ، وذلك لأنها كانت راسية بزنجبار حينئذ .

كل هذه الأمور كانت تلقي بتأثيراتها الحادة على الداخل ، الذي لم يعد أنبؤه بقادرين على الحصول على مردود بالعمل كتجار أو كبحارة ومقاتلين على الأسطول . و « في أواخر القرن الثامن عشر أخذت الإمارات العربية الناشئة كالبحرين والكويت وموانئ ساحل عُمان تتحدى بشكل عدواني سيادة عُمان التجارية ، وهو وضع أشعل حروباً بحرية بين هذه الإمارات وعرب عُمان »^(١١) . وترافق ذلك مع جعل بريطانيا من نفسها الحكم والقاضي . وحتى الحركة التي كانت تجري في أوساط قبائل عمان الداخلية وُضع لها سقف لا تتخطاه ، وحدود لا تتجاوزها . فأضحت حركة الصراع والغزو وإعادة الإقتسام للناتج المحلي الشحيح ، أضحت تلك المسألة في البحر قرصنة ، وجمعت تلك الحركة داخلياً مع تقدم بريطانيا لدعم تلك القوة أو تلك القائمة على الساحل . ومع تراجع إمكانيات تلك القوى الساحلية بما فيها القوى الحاكمة والتي كانت الواردات الجمركية عمادها الأساسي ، قلّ ما كانت تلك القوى تعطيه لقبائل الداخل المقاتلة والتي كانت تشكل امتداداتها القبلية وعمقها العسكري .

أوجدت تلك الحالة من الضنك والإفقار أرضية لتصاعد حالة النقاش التي ما انطفأ أوارها ولا تلاشت جوانبها وإن فترت ، وذلك حول الواقع الذي أحاط بالمذهب الإباضي وبمسألة التمسك بقواعده وأحكامه . وترافقت جوانب الحالة الإقتصادية والنواحي المذهبية وتفاعلت ، وتمركزت حول قضية إحياء الإمامة والعودة للأصول ، وإعادة الإعتبار للأركان الأساسية التي درج المجتمع العماني على اعتبارها مفاتيح قوته وتمكنه من اكتساب مقومات حياته . وهكذا إنفتح الباب لمبايعة الإمام .

★ ★ ★

ووقع الإختيار على عزان بن قيس للمبايعة ، وكأنه بانثائه العائلي ، وواقعه الذاتي بعد مقتل والده ، وبسبب ابتعاد أبناء قيس بن أحمد بن سعيد البوسعيدي عن الصدارة ، وتقدم أبناء سلطان بن أحمد البوسعيد ، وبارتباطه بالداخل ، شكل بامتلاكه لكل تلك الأمور ، موقع التقاطع الأنسب لتلك الفترة . وتحورت حول الإمام الجديد مجموعة من القادة لا بد من تقديمهم .

شكل سعيد بن خلفان الخليلي الشخصية القوية للثورة وعقلها المفكر . وهو سليل أسرة عريقة ، شهدت إنتخاب عدة أئمة في أوساطها ، فهو « من نسل الإمام الخليل بن عبد الله بن عمر بن محمد بن الإمام الخليل بن العلامة شاذان ابن الإمام الصلت بن مالك بن بلعرب الخروصي » ، ويتسلسل نسبه حسب المؤرخين العمانيين إلى « كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود النبي عليه الصلاة والسلام »^(١٢) . وكان قد عمل طويلاً قبل فترة إمامة عزان بن قيس من أجل إحياء الإمامة الإباضية . وإذا كان رجال الدين قد أصبحوا « في مقدمة الصفوف في الأشهر القليلة من حكم [عزان بن قيس] »^(١٣) ، فإن الخليلي كان المقدم بينهم ، فقد « كان يتمتع بسلطة دينية عالية يصدر الأوامر للإمام عزان فيلزمه إتباعها ، وأنه يذهب أمامه دخولاً وخروجاً ، يأخذ القهوة قبل الإمام . وقد سئل عن ذلك ، فأجاب : لأريكم شرف العلم ، وأن العلماء حكام على الملوك والملوك حكام على الرعية »^(١٤) « التخطيط من عندي » .

وهناك صالح ابن علي الحارثي شيخ قبيلة الحرث في مقاطعة الشرقية ، وهي قبيلة ذات ثقل عسكري بارز . وكان صالح بن علي زعيماً للهناوية . ويورد محمد السالمي ترجمة له فيقول : « كان هذا الشيخ أحد أقطاب الدولة الذين دارت عليهم شؤون مملكة الإمام عزان بن قيس . . . وبعد إنقراض تلك الدولة ، بقي هذا الشيخ محتسباً للمسلمين حابساً نفسه لجهاد البغاة

والجبابرة ، ولصلابته وقوة جأشه وإخلاصه ، كان يقود الجيوش فيهاجم بها سلطنة مسقط في عاصمتهم ، وهاجمهم مراراً ، والوقائع والحروب التي دارت بينهم مشهورة عند العُمانيين ، وأوتي حظاً عظيماً وهيبة صدع بها قلوب المارقين ، وكان يحاول إعادة الإمامة في عُمان ، وقد رشح لغرضه السيد سعود بن الإمام عزان بن قيس رضي الله عنهما ، فلم يكن يفارقه في غزواته رجاء أن ينال فرصة لأخذ البيعة له إذا فتح بعض المعادل فما قدر الله... »^(١٥) . ويذكر الكاتب أن صالح بن علي قد هاجر إلى زنجبار في أيام السلطان ماجد بن سعيد فكان بينه وبين ماجد مهاجمات تعصب فيها للسيد برغش بن سعيد مما أدى إلى الهجرة من زنجبار إلى الصومال حيث أقام في ضيافة حاكمها سنتين وقرأ هناك على أحد العلماء في النحو والصرف والمعاني والبيان وعاد إلى زنجبار حيث تصالح وماغد . ويورد صاحب نهضة الأعيان شيوخته ، فيقول : أن أجل شيوخته الذين أخذ عنهم العلم كان العلامة المحقق الخليلي ، حيث هاجر إليه وهو صبي لم يبلغ الحلم فأعطاه دروساً ، وردّه إلى بلده ثم رجع إليه في العام القابل ولقنه دروساً أخرى ، وحيث أن « عادة المحقق الخليلي مع التلاميذ الاستخبار ، فلما رجع إليه ثالثاً قرّبه إليه لما توسم فيه من الصلاح »^(١٦) . ويضيف بأنه « كان أعلم أهل زمانه بالحلال والحرام ، وقد شهد له علماء عصره » ولقد آلف رسالة سماها علم الرشاد في أحكام الجهاد « أتقن فيها أحكام النبي وما يجازي به فاعله » . كما أن له رسائل ومجلد ضخّم به أجوبة فقهية ، وقد رتبته القاضي أبو الوليد ، تحت عنوان عين المصالح في أجوبة الشيخ صالح^(١٧) .

أما الشخصية الثالثة فهي شخصية العلامة محمد بن سلمان الغاري ، وينتمي لقبيلة آل سعد ، وهي من الشخصيات التي حاولت إحياء الإمامة الإباضية . وشكل هو والخليلي وصالح بن علي ، الشخصيات الثلاث القوية التي سيطرت على الحكم وسيّرت دفتّه بالفعل .

ويضاف إليهم إبراهيم بن قيس بن عزان أخ الإمام ، وفصيل بن حمود بن عزان ابن عمه . ولقد كانا قائدين عسكريين ، ولعبا أدواراً بارزة في حملات الإمام .

كان صالح بن علي ، بادی ذي بدء مؤيداً لسلم بن ثويني ، كما سبق القول . ودبر الأخير محاولة للإمساك به نجاً منها الأول في آخر لحظة^(١٨) . وبذلك تمهد الطريق لانتخاب عزان بن قيس . وأخذ سعيد بن خلفان يرسل زعماء شرق عُمان . وأخذ صالح بن علي يستثير قبيلة بني بو حسن ضد السلطان لاستخدام الأخير جنود من قبيلة بني بو علي ، وهي قبيلة كانت على خلافات تقليدية مع القبيلة الأولى . واستعاد الخليلي بمراسلاته تقليداً أصيلاً في التمهيد للانتخابات الإمامية . ثم دعا الخليلي عزان بن قيس لحضور إجتماع في بلدة بركا على الساحل ، كان الثوار قد تمكّنوا من فرض نفوذهم عليها في خريف ١٨٦٨ .

إنعقد الإجتماع وحضره شيوخ المقاطعات العُمانية ورؤساؤها وعلمائها . وعلى إثر الإجتماع تقدم الثوار واستولوا على قلعة مطرح . ولما استسلمت حامية القلعة لصالح والخليلي غادر عزان بركا وعجّل بالإنضمام إليهما لمهاجمة مسقط حيث « حاز الثوار أكبر نجاح لهم في مسقط ، وانضم لهم بقية العلماء والزعماء وعقدوا هناك إجتماعاً كبيراً بغية إنتخاب الإمام ، وقد سيطر على هذا الإجتماع الزعماء البارزون من الإباضيين... » وقد وقع إختيار المجتمعين على عزان بن قيس فَعقدوا له البيعة^(١٩) ، ووفد بعد ذلك الكثير من زعماء القبائل لكي يبايعوا الإمام الجديد .

(١٣) جى . بى . كيلي . الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية . ترجمة خيرى حماد . بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، ١٩٧١ . ص ١٣٤ .

(١٤) نهضة الأعيان ، ص ٣٣٢ .

(١٥) م . ن . ص ٧١ وما بعد .

(١٦) م . ن .

(١٧) م . ن .

(١٨) تحفة الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .

(١٩) دراسة لتاريخ الإمارات ١٨٤٠ - ١٩١٤ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

هوامش :

(١) لاندن ، ص ٢٥٠ وما بعد .

(٢) حميد بن محمد بن رزق ، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين . آلف الكتاب سنة ١٢٧٤ هـ . تحقيق عبد المنعم عامر والدكتور محمد مرسي عبدالله . عمان : وزارة التراث القومي ، ١٩٧٧ . ص ٣٣٠ .

(٣) م . ن . ص ٣٤٣ .

(٤) تحفة الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٥) سالم بن حمود السبائي . إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ، صقور البحر العماني . المطبعة التعاونية بدمشق ، ١٩٧٦ . ص ١٥٣ .

(٦) سائلة بنت السيد سعيد بن سلطان . مذكرات أميرة عربية . ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي ، أبر ظبي : ١٩٧٤ ص ١٦٧ .

(٧) م . ن . ص ١٩١ .

(٨) الدكتور جمال زكريا قاسم . دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ . الكويت : دار البحوث العلمية . الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ . ص ٩٣ وما بعد .

(٩) لاندن ، ص ٢٥ .

(١٠) الدكتور ريتشارد ستيفنس . «استعراض لبداية العلاقة الأمريكية التجارية والقنصلية مع سلطنة عُمان» (١٨٣٣ - ١٨٥٦) ، دراسات الخليج والجزيرة العربية . العدد ١١ ، السنة الثالثة ، تموز ١٩٧٧ . ص ١٢٦ .

(١١) لاندن ، ص ٥٦ .

(١٢) نهضة الأعيان ، ص ٣٢٣ .

الباب الثالث

الإمام القوي الضعيف

«ولدت المعرفة في المدينة المنورة وبرزت إلى الوجود في
البصرة وانطلقت إلى عُمان»

لومة لائم، وأن تجعل القوي ضعيفاً حتى تأخذ منه حق الله،
والعزيز ذليلاً حتى تنفذ فيه حكم الله، وأن تمضي على سبيل
الحق أو تفني زوحدك فيه، وأن تعطينا على ذلك عهد الله،
وميثاقه لنا ولجميع المسلمين»^(٢).

باب الإمام القوي الضعيف

ويقول السالي في التحفة، بأن هذه الشروط التي ذكروها في هذه
البيعة إنما «هي شروط يشترطها المسلمون على الإمام الضعيف كي لا
يدخل في أمر لا يسعه الدخول فيه، وإنما اختاروا عزان للإمامة مع أنه في
الجماعة من هو أكثر منه علماً، ولا يبلغ علمه معشار ما عند بعضهم لكونه
من بيت السلطنة، وتفرّسوا فيه صدق اليقين وقوة الإيمان وعزيمة الصبر
وشدة الوفاء، وحسن الإتياع وغاية الورع، فصدق الله فيه ظنهم وقام بما
حمله من الواجبات، ووفى بما عليه وزيادة حتى ذهبت في سبيل الله روحه
والمسلمون عنه راضون»^(٣).

وقام الخليلي بمراسلة إباضية المغرب، جرياً على عادة إباضية عمان
وتقليدهم عبر السنين^(٤)، وإبلاغهم بما يجري في عمان باعتبارها المركز
الإباضي الأول.

كان الإمام المنتخب هنائياً، فهو من أسرة البوسعيد الحاكمة. وكان
عليه أن يواجه منذ البدء مسألة توحيد الأمة بجناحيها الهناوي والغفاري.
ولقد سار عزان سيرته التوحيدية مستخدماً أسلوباً عنيفاً، ولم يستطع تفادي
اصطباج قوته بالصبغة الهنائية. ولقد اضطر لمواجهة القبائل الغافرية بالقوة
سواء حين حاول استقطاب بعضها وجعلها تنتظم في دولته أو لإخضاع من
تمرد فيما بعد. ولا يجب أن تعني البيعة التي أعطيت له بأنه كان إماماً
ضعيفاً، وإنما كان في الحقيقة من أقوى الأئمة الذين شهدتهم عُمان. ولربما
كانت قوة شكيمة تلك، وكونه ينتمي إلى بيت السلطنة، هو الذي جعل من

يصف عبد الله السالي أحداث مبايعة الإمام عزان بن قيس، فيقول
بأنه حين وقعت خيرة المسلمين على عزان بن قيس بعد التشاور والتناظر،
وكان رؤساء الحاضرين يومئذ الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي والشيخ صالح
بن علي بن ناصر الحارثي والشيخ محمد بن سليم الغفاري، ومن معهم من
إخوانهم ووجوه القبائل وخاصة المسلمين وعامتهم «فبايعوه يوم الجمعة بعد
العصر في يوم إثنين وعشرين من جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين ومائتين
وألف، وبايعه الخاص والعام، وضربت المدافع إعلاماً»^(٥). ولقد بويع
الإمام على هذا النحو:

* * *

«بسم الله الرحمن الرحيم: قد بايعناك على طاعة الله
ورسوله، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
ونصبناك إماماً علينا وعلى الناس على سبيل الدفاع، وعلى
شرط أن لا تعقد راية ولا تنفذ حكماً ولا تقضي أمراً إلا
برأي المسلمين ومشورتهم، وقد بايعناك على إنفاذ أحكام الله
تعالى، وإقامة حدوده، وقبض الجبايات وإقامة الجمعيات
ونصرة المظلوم، واغاثة الملهوف، وأن لا تأخذك في الله

بايموه يضعون بعض الضوابط والشروط لتحقيق أكبر قدر من الضمانات لكي تحيط بمسيرة الدولة ونظامها.

لقد استطاع عزان في فترة من الفترات إخضاع كل عُمان لسيطرته ويعلق الكاتب الأميركي لاندن على ذلك فيقول:

« أن أهم ما أنجزته حكومة عزان هو إخضاعها البلاد كلها لسيطرتها ، وهذا ما لم يتسن إلا للقليل من رجال الحكم في عُمان . وعندما تألفت الإمامة في أكتوبر سنة ١٨٦٨ ، أعلنت غالبية القبائل الهناوية ولائها وتأييدها للحكومة الجديدة . ومن ناحية أخرى فإن عدداً قليلاً من قبائل الغافرية اشترك بالثورة التي أتت بالإمامة . ومع ذلك فإنه بالرغم من أن فئات الغافرية قد اعترفت بسلطة الحكم الجديدة إلا أن أغليبيتها لم تخضع للإمام ... وفي شهر يناير زحفت طلائع قوات الإمام على سائل وقامت بسلسلة من العمليات امتدت نحو شهر انتهت باستلام قبائل الغافرية لقوات الإمام »^(٥).

قام فيصل بن حمود بن قيس في نفس العام بالتجول عبر المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد لتلقي الولاء « وخلال وجوده في هذه المنطقة أعلن شيخ بني بوعلي الغافري ولاءه للإمام عزان »^(٦). وشهد حزيان من نفس العام قيام قبائل النعيم الغافرية بالتحالف معهم ، وتمكن في الصيف من إنزال الهزيمة بشيخ الغافرية الأكبر علي بن جابر في أزكى ، وأن يحصل على ولاء بني ريام الغافريين . ويصف لاندن الوضع القائم في الربع الثالث من عام ١٨٦٩ :

« في خريف عام ١٨٦٩ وصل نفوذ الإمامة في عُمان إلى ذروته ، وكان أقوى حكم شهدته عُمان في كل تاريخها . فقد امتدت سلطة الإمام عزان حتى شملت البلاد كلها داخلها وخارجها ، مناطقها الساحلية ومناطقها القبلية ، معاقليها ومدنها ، سهولها وجبالها . وهو عمل يحق للإمام عزان أن يفخر به ... إن النجاح الذي حققه الإمام عزان كان يعود في معظمه إلى إلتفاف قبائل الهناوية القوية حوله . ومع أن قبائل الغافرية لم تكن متحمسة للإمام عزان في أي وقت من الأوقات إلا أنها لم تقف ضده »^(٧).

صعبت المحافظة على الوحدة والتحالف في ظل هذا الوضع غير المتناسك ، وكان لا بد للصراع من أن يتفجر أجلاً أم عاجلاً . وكان عزان بحاجة إلى الوحدة والتناك بشكل قاهر بالنظر إلى الأعداء العديدين الذين سرعان ما اضطر إلى مواجهتهم . فهناك أولاً سالم بن ثويني الحاكم المعزول الذي كان يعمل لأجل استرداد سلطته متخذاً من جزيرة القشم الواقعة قبالة الساحل العماني وعلى مقربة من مضيق هرمز مقراً له ، وكان يتعاون في ذلك مع والي السعوديين في البريمي السديري . وقد تجول في نواحي عُمان محاولاً اجتذاب التأييد له . وعاد السعوديون للمطالبة بالزكاة ، وأردفوا مطالبتهم تلك بتهديد واضح حينما رفض عزان أن يؤديها بعناد . وبرز تركي بن سعيد بن سلطان أخ الحاكم المقتول وعم الحاكم المعزول ، والذي ما فتئ ثائراً متمرداً على أخيه ثويني وعلى ابنه من بعده ، وله مطامحه في استلام الحكم ، وهو يقيم منذ فترة في بومي بعد توسط السلطات البريطانية له لدى أخيه . وهناك حاكم زنجبار الذي كان يصاب بالهلع من أي تغيير في مسقط قد يأتي بحاكم جديد قد يطمح في إعادة زنجبار إلى الحضيرة العُمانية . وتزايدت هذه المخاوف مع تزايد قوة الحاكم ، ومدى قدرته في تكتيل القوة

وزيادة الإمكانات الذاتية للسلطة المسقطية. وتمتص فارس بدورها التي كانت تنتظر أية فرصة مناسبة لإعادة طرح موضوع الأقاليم الخاضعة للسيطرة العُمانية. ويضاف إلى ذلك كله ناصر بن ثويني الذي ذهب إلى جوارد في بلوشستان الساحلية، وكانت تابعة لعمان ليعلم بدوره تردداً من هناك. وتبقى بريطانيا متميزة بكونها العدو الأكبر الذي يمتلك الإمكانات الأضخم والذي سيقوم بالدور الحاسم في المواجهة المقبلة.

وهكذا كانت مسألة الوحدة الوطنية ذات أهمية عظمى، تتزايد قيمتها وإلحاحها مع تقدم الوقت، ومع تزايد التقاطع بين كل هذه الأطراف، ومع بروز خلافات تزايدت بين أركان الدولة.

سبق القول بأن إمامة عزان كانت إمامة تعتمد علىبيعة تُعطى للإمام الضعيف، من حيث إشتراط المبايعين ضرورة عودة الحاكم إليهم للمشورة بشكل دائم. وقد ظهرت خلافات بين الزعماء الذين قادوا الدولة عبر تطوراتها المختلفة. لقد بدا أن الشخصية الأولى كانت هي شخصية الخليلي، ولقد تزوج عزان ابنته. ويقول لاندن، وتأخذ تقييماً بشيء من الحذر دوماً، بأن الخليلي يحتل من الناحية الرسمية منصب قاضي القضاة ومحافظ مسقط. أما من الناحية الفعلية فقد كان كبير المستشارين الدينيين والماليين والسياسيين. وكانت جميع المسائل حتى أصغرها تعرض عليه.

وكان يحظى بدعم مجموعة من مشايخ الدين الذين يطلق عليهم اسم المطاوعة، ويصفهم لاندن فيقول بأنهم كانوا يمثلون «رأس الحربة للإباضية العسكرية المتطرفة، والذين يمكن تشبيههم بالغزاة المسلمين الأوائل. وهم جماعة راسخة الجذور بين الأباضيين، حيث يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر. غير أن محور وحدتهم السياسية في الستينات من القرن التاسع عشر كان في الدرجة الأولى هي ولاؤهم المشترك للخليبي. وكان ثمة على ما يبدو، فريقان من المطاوعة: علماء الدين المتضلعون، ومهمتهم أشبه بمهمة جماعة

القراء في عهد الخوارج والمحاربون (المنفذون) للبرامج التي يضعها زعماء الدين»^(٨). ويقول لاندن أن الخليلي تمكن بذكائه وبما اشتهر به من التقوى والورع وبُعد النظر، وبالتأييد الفعال من جانب المطاوعة، الذين يضمون أغلبية رجال القضاء في عُمان، من أن يقبض بيد من حديد على زمام الحكم المدني للحكومة التي أقيمت في عُمان.

وهناك الشخصية الثانية وربما كانت الثالثة، إذا ما وضعت بعد الإمام والخليبي وهي صالح بن علي الذي يقول لاندن بأنه قد تولى منصباً رسمياً يماثل منصب رئيس الوزراء في الدولة العلمانية، ولكن الخليلي كان يعتدي على صلاحياته، وبذلك فترت علاقة صالح مع بقية أركان الدولة بمرور الوقت. وهناك الشيخ الغاري الذي اختلف والخليبي حول بعض الإجراءات المالية الخاصة بمصادرة أموال العائلة الحاكمة. ويقول عبدالله السالمي «... لم يفهم الشيخ الغاري مأخذ هذا الحكم ووقع بينهما في ذلك حججاً كثيرة وألف فيه رسالة واسعة فسكت الشيخ الغاري... [ظاناً].. أن الحكم بهذا إنما يكون في أموال من مات منهم، دون الأحياء»^(٩). ويتحدث لاندن عن إبراهيم بن قيس وفيصل بن حمود فيصفهما بأنهما كانا قائدين عسكريين بارزين ومشغبين وكان الأول ينتقد الخليلي علناً^(١٠). شكلت البيعة وقيام الإمامة ملقياً للقوى المختلفة، ولكنها مع إنتقالها إلى الممارسات التي تفرضها السلطة، برزت الخلافات الطبيعية بينها، وفاقمها، وجعل منها ذات أبعاد خطيرة كثرة الأعداء من ناحية، والتحجيم الذي فرضته القوى الأوروبية لطابع الصراعات وأفقها، ولم يعد بالإمكان تحقيق شيء مشابه لما حدث في صدر الدولة اليعربية، حينما ربط منذ البداية بين الوضع الداخلي ومد الجهاد للخارج في مواجهة البرتغاليين، فلقد أصبح ميزان القوى يميل بشدة لصالح بريطانيا، وما عادت الطاقات العُمانية لوحدها بقادرة على تغيير الموازين، خاصة وهي في حالة من الصراع الحاد والمركز في الجزيرة العربية.

بدأ التحالف الهنائي - الغافري بمحدوديته يتعرض للتصدع . ويصف صاحب « التحفة » الوضع فيقول :

« وكانت الغافرية من سوء رأيهم يرون أن الدولة قد صارت للهنأوية ، فأضرموا العداوة للإمام ومن معه ... فإن أفاضل الغافرية والهنأوية قد دخلوا تحت طاعة الإمام ورضوا أمره ، وإنما بقيت رؤساء القبائل وأتباعهم من كل جاهل ومارق ومنافق وفاسق ، فدخلتهم الحمية الجاهلية وتعصبوا العصبية الضالة ، وصار أكثرهم يداً واحدة في الضلال والبغي ، واشتهر بذلك أهل وادي سائل من سبّايين أو بني جابر والرحبيين والندايين ، وحرضهم على ذلك أخوانهم من بني ريام والدروع والجنبه وتشهر بها السبّايون »^(١١).

واجه عزان ثورة كبيرة تزعمها الغافريون في شباط عام ١٨٦٩ ، لكن فشل التمرد وهرب القائمون به من أراضي الإمامة وعمل السعوديون على نصرة القبائل الغافرية وأعلنوا عدائهم للإمام . وثارت قبائل البوعلي . وكانت قبائل البوعلي ذات خواص « فانهم كانوا على دين الوهابية ، وهم بقية من أنصار نجد ، وتعرفهم العامة بالأزارقة لأنهم شابهوا الأزارقة في تشريك أهل القبلة ... وصعب عليهم الإنقياد واستعدوا للحرب ... وكانوا من قبل ذلك أنصار سالم بن ثويني ، فهموا بنصرته ، فرماهم الله بالطاعون ... وكان بنو بوعلي أهل عدة وعدد وبسالة وشجاعة وإقدام هائل ، يعتقدون في الموت والشهادة ويرون الفرار حراماً ، ولهم سطوات هائلة »^(١٢) وحينما تمكن الإمام منهم وأذعنوا له أخذ

أكابرهم وأكابر من ناصرهم من بني راسب والهشم وسجنهم وأمر بقلاعهم فهُدمت . وجرى تفجير إحدى أمنع قلاعهم ، وذلك بالحفر من تحتها وإدخال البارود في مواقع ثم إشعالها « فزعتها صاعداً ، فكانت ترى في الجو كمثل السحاب ثم تساقطت قطعاً »^(١٣) . ولكن الخليلي قد عد ذلك تساهلاً ببني بوعلي ، وكان مراد الشيخ وأن يجري التشدد تجاههم « وذلك لخوفه على الدولة منهم ، وقد ظهر أخيراً ما تفرسه الشيخ الخليلي »^(١٤) . وأرسل في ذلك رسالة يعاتب فيما صنع ببني بوعلي وضمنه بيت الشعر :

فإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد

وكأنما أراد الخليلي أن ينبئ بمحدث ما سيحدث في المستقبل حيث هرب المسجونون من مسقط بحيلة استخدموها ، وذلك بمساعدة قومهم من جعلان . ولكن على أية حال فانه بعد هذه الواقعة لم يتبق على الإمام سوى حصن الحزم « وهو حصن لا تبعة له ، واستفتحته الإمام بعد ذلك »^(١٥) . ويورد صاحب التحفة مقتطفاً للشيخ جمعة بن خصيف واصفاً الحالة بعد هذه الأحداث فيقول :

« فها هي الآن مصر عمان قد نعمت بالأمان ، روضة أنف بالعدل والإحسان ، مستظلة لظل الإنصاف ، مستنيرة بأنوار أهل الفضل والعفاف ، تنشر فيها الأعلام الإسلامية وتنفذ الأحكام الشرعية وتحيي السنن المحمدية وتمت البدع الباطلية ، وترد المظالم ، ويؤخذ بها الظالم ، فما منافق إلا أذله الله بنفاقه ، ولا مشاقق إلا رجع بالوبال عليه شقاقه ، فسوق الأعداء في كساد ، وأمرهم حرام عليه السداد وآراؤهم منكوسة وتدابيرهم منحوسة »^(١٦)

ولكن ربما كان عزان قد حقق حتى ذلك الوقت أقصى الإنجازات ، وسرعان ما بدأ التفكك والصراع يحتاج الصفوف الإمامية . يقول جمال زكريا قاسم « ومع أن الكثيرين تحالفوا ضد الإمامة فإنها لم تقتقر إلى المؤيدين لها ، وكان معظمهم من الإباضيين المدفوعين إلى الولاء للإمام بدافع من عقيدتهم ، وكذلك ظلت كثير من القبائل الهناوية وبعض من الغافرية على ثقتهم بالإمام عزان بن قيس » ، ولكنه لا يخفى بالمقابل « ... عدم تحالف الهناوية والغافرية ، وليس من شك في أن الكثيرين كانوا يعادون الإمامة سرّاً أو علانية بسبب الصبغة الهناوية التي اصطبغت بها ، أو لأنهم لم يرضوا أساليب حكمها » ، ويضيف بأنه حتى الهناويين يبدو أنهم قد فقدوا تأييدهم ، فيقال بأن الرصاصة التي أودت بحياة الإمام عزان بن قيس هي رصاصة من أحد أتباعه^(١٧) .

ويتحدث لاندن مفسراً أسباب نجاحات إمامة عزان فيقول بأن انتصاره عام ١٨٦٨ كان يعود بأسبابه إلى تأييد قسم كبير من العُمانيين لبرنامجهم ، وإلى الزعامة المخلصة للطبقة الدينية المحافظة ثانياً ، وإلى بعض الزعماء الشرعيين ثالثاً ، وإلى إيمان الزعماء القبليين بقضية المحافظين بعد سنة ١٨٦٧ رابعاً ، وأخيراً إلى الضعف والتفكك المتزايد في صفوف الحكام المعتدلين^(١٨) ، وذلك حسب وصفه .

لا ريب أن وجود عزان على رأس الإمامة قد ساهم لكونه من الأسرة الحاكمة في تعزيز الجبهة ، وذلك لأنه جلب إلى الثورة قوة من فئة يصعب إستجلاب أحد منها للوقوف بجانب الثورة . ولكن كل أسباب النجاح والقوى التي تجمعت ، لم تكن قادرة على تحقيق لمّ الشمل العام أو فرض الوحدة ومنع الأعداء البارزين من النفاذ إلى صفوف الدولة والتأثير فيها .

حينما تحركت قوات المجتمعين من بركا إلى مطرح فمسقط ، كان كل من قادتها البارزين قد قطع شوطاً كبيراً ، وبذل جهداً مديداً من أجل

التحضير لذلك الحدث ، تمازجت فيه الأوضاع العامة والمسار الذاتي ليصهر كل منهم ويدفعه نحو ذلك الدرب الذي بدأ عاصفاً وسيستمر كذلك طيلة الثلاث السنين التي تلت . والذي شكل تعقيداً وتضيقاً وتكثيفاً لأحداث كانت تتفاعل في عُمان منذ بداية الستينات ضد ثويني بن سعيد ومن بعده سالم بن ثويني . وكان عزان بن قيس هو ملتقى تلك التناقضات .

فشيوخ الدين بزعامة الخليلي دأبوا على الإعداد لإعلان الإمامة وإحيائها . والصراعات التي برزت بين أبناء الإمام أحمد بن سعيد وتحديداً بين أبناء قيس بن سعيد وسلطان بن أحمد ، والتي انتهت إلى تصدر أبناء سلطان بن أحمد وتراجع أبناء قيس ، وما مرّ في تسلسل الأحداث من مقتل عزان بن قيس في مناظرة مع أحد الولاة ، لإقناع الأخير بالثورة . ضد ثويني ، كانت تلك الأمور تبلور المزيد من التمرد والثورة في شخصية عزان بن قيس . أما صالح بن علي الحارثي فقد بات موضع تخوف سالم بن ثويني الذي بات يشعر بأن هذا الشيخ الذي يعد من أعوانه قد بات من القوة بما يستدعي إعداد العدة للإيقاع بصالح . وما أن اكتشف شيخ الحرث الشرك الذي أعدّ للإيقاع به بمسقط حتى أخذ منذ خروجه الفوري من مسقط في الإعداد السياسي والتحريضي للثوار فمرّ بالمصنعة والرسّاق ووادي بني غافر ، وجاء على طريق نجد المحارم ، ومنها على طريق عُمان حتى وصل إلى الشرقية وهي موطنه « فبقي الخطاب بينه وبين الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي ... وكان عزان بن قيس سلطاناً على الرستاق ، وكان حسن السيرة فيها ، وكان الشيخ محمد بن سليم الغاري في الباطنة وهو أعلم من فيها ذلك اليوم وأفضل ، وكان مسموعاً مطاعاً فيهم لعلمه وفضله ، وأما الرئاسة فلفيره ، فتكاتبوا وتحاطبوا وكانوا يحاولون ظهور العدل في كل حين ، فلم تمكنهم الفرصة ، وكان الشيخ سعيد بن خلفان قد هياً لذلك الأسباب وادخر الدراهم ، ولم تزل الرسل والمكاتبة بينهم حتى منّ الله عليهم بظهور العدل واجتماع الشمل »^(١٩) .

ولا يجب أن يؤخذ وجود عزان بن قيس على رأس السلطة بأنه قد قاد الأحداث وجعلها تصب في هيئة إنقلاب قصر نقلت السلطة من يد فرع إلى فرع آخر في العائلة. فما حدث كان حصيلة ثورة خافتة وعلمية مستمرة منذ عشرات السنين، منذ أن نشأت الأمبراطورية وطرحَت مسائل الإباضية وخاصة مسألة الوراثة والحكم والبيعة على المحك أمام بروز قضايا جديدة. ومنذ أن برزت الأهمية المتزايدة للبحار وممتلكات ما وراء البحار والأسطول، وما تبع ذلك من تراجع الداخل لصالح الساحل، ولم تعد الرستاق وإزكى ولا حتى نزوى وهي «كرسي مملكة العرب وبيضة الإسلام» إلى لعب دورها المركزي. وترافقت هذه التطورات بتزايد إمكانيات من يحكم الساحل بحيث بات قادراً على إرسال الفاض للداخل للإستعانة بقواته العسكرية الفاتكة. ولذلك فما أن تتأثر هذه القدرات أو تضطرب الأوضاع في الساحل ويقل ما يرسل من فوائض حتى يتحرك الداخل ويتساءل عن مكانه في الدولة وحقه ونصيبه من مواردها ويعاد طرح كافة الأمور العقيدية. ولم تكن كافة الأحداث قد جرت بمعزل عما شهدته المياه الجنوبية من قدوم قوى أجنبية بات التحالف معها أو معاداتها مسألة تقذف بتأثيراتها الواضحة إلى كل ضاحية ومنطقة بشكل أو بآخر.

عقد اجتماع بركا في خريف ١٨٦٨ وتلاه إسقاط مطرح إثر استسلام حامية القلعة لصالح بن علي والخليلي، فغادر عزان بركا وعجل بالإنضمام للقوات التي كانت تستعد لهاجمة مسقط. وشن الهجوم على العاصمة من جهتين وذلك في أيلول، حيث تقدمت قوات عزان والقوات التي يقودها صالح بن علي وشيخ بني رواحه. وفي ٢٩ أيلول ١٨٦٨ سقطت المدينة. ومثلما كان الجنود على درجة عالية من الانضباط والنظام في هجومهم على مطرح، كانوا كذلك في الهجوم على مسقط والمحافظة على الأرواح والممتلكات. ففي حين الهجوم على مطرح أعطى صالح بن علي توجيهاته بخصوص عدم أخذ شيء من أموال الناس ولم تحدث سوى حادثة سلب

واحدة عالجها صالح بن علي فوراً وبجزم. وحين الهجوم على مسقط وقف عزان بن قيس خطيباً في الهاجين بألا يغيروا ولا يبدلوا ولا يأخذوا من مال الرعايا شيئاً^(٢٠).

بدأ الإمام بعد ذلك حملة موجهة ضد أكبر تجمع للقبائل الغافرية وذاك في وادي سائل. وقبل الزحف استسلم والي السلطان السابق على المصنعة حمد بن سالم. ومع حلول كانون الثاني ١٩٦٩ زحفت طلائع الإمام على سائل وقامت بسلسلة من العمليات امتدت نحو شهر وانتهت باستسلام قبائل الغافرية لقوات الإمام. «وقد نشب قتال لا مثيل له في العنف حتى بالمقاييس العادية للحروب القبلية في البلاد العربية، لإخضاع الخصوم السياسيين. فعندما رفضت هذه القبيلة دعوة الإمام للإعتراف به، شن عليها هجوماً بثلاثة آلاف مقاتل جندوا من ساحل الباطنة، وكان يدعم هذه القوة مدفعان من مدافع الميدان. فكانت نتيجة هذا الهجوم «أن انهارت قدرة الساييين على القتال، واستسلمت بقية قبائل الغافرية المجاورة بسرعة»^(٢١).

وعلق لوريير مؤلف دليل الخليج، وهو عبارة عن موسوعة تاريخية وجغرافية أعدت للعسكريين البريطانيين، على حملة عزان ضد الندابيين والرحبيين بعد هزيمة الساييين فقال: «نجح عزان رغم صعوبة الأرض في هذا الإقليم - في إخضاع الندابيين والرحبيين الذين كانوا يناصرون الساييين. وكانت هذه الحملة في نظر البعض مغامرة... إن لم نقل أنها كانت عملية انتحارية، وأثبت نجاح عزان الساحق هذا إنه رجل على قوة في الخلق والعزيمة لم تألفها عُمان في حكومتها منذ زمن بعيد»^(٢٢).

بقي بني ريام خارجين على الإمام، فبعث لهم بهدية من ٢٠٠ قيد كتحذير ضمني. وفي ذلك الوقت نجح سالم بن ثويني في التكتل مع تركي السديري والي البريمي من قبل السعوديين، ولكن أدى إغتيال السديري

المفاجيء إلى تعطيل خطط سالم وجعله يعود لمنفاه خائباً. وفي نفس الوقت الذي كان الإمام يقوم بحملة على وادي سمائل، توجه ابن أخيه فيصل بن حمود في طريقه عبر المنطقة الجنوبية الشرقية في عُمان يتلقى مظاهر الولاء من قبائل المنطقة، ويحصل على التأييد في صور وجعلان وبلاد بني بو حسن وبلاد بني بو علي وقام بزيارة للشرقية ولقييلتها الحرث.

استطاع عزان بن قيس أن يتفق وقبيلة النعيم الغافرية بصدد تنسيق الخطوات للهجوم على البريمي وانتزاعها من أيدي السعوديين. ولقد لعب هذا التحالف دوره إضافة إلى وصول نخبات سريعة بقيادة صالح بن علي في تحقيق نجاح جيد. ولقد قام عزان بتعيين أحد الولاة ممن لم يكونوا موقع القبول لدى النعيم فأوغر هذا في صدرهم. وأثناء هجوم الإمام على البريمي تسلل سالم بن ثويني إلى نزوى والتي لم تكن قد سقطت بيد الإمام وإنما كانت بيد حمد بن سيف البوسعيد ولم يجد المعونة فذهب إلى آل وهيبة فأووه ولكنهم إنهمزوا أمام فيصل بن حمود ففر سالم.

بدأت قوات الإمام بعد ذلك في الإعداد لحملة ضد عُمان الوسطى. وقد استخدم عزان مقره العائلي في ذلك. بدأت الحملة في أيلول ١٨٦٩، وانقضت قوات عزان من الرستاق في اتجاه الجنوب الغربي من عُمان عبر سلسلة جبال الحجر حتى منطقة قبائل شكيل في مقاطعة عُمان الوسطى واستولت على قلعتهم الكبرى في بهلا، بينما استولى صالح بن علي على منح، واستولى شقيق الإمام إبراهيم بن قيس على أزكى وقلعتها ونزوى وقلعتها. وفي هجومه الأخير وجه إبراهيم نداء إلى شيخ بني ريام للمساعدة في الهجوم على نزوى، ولقد اغتتم الأخير الفرصة لإنهاء خلافاته مع الإمام، وشارك في الهجوم على نزوى، وشهد تشرين الأول انتهاء الحملة.

وشهد تشرين الثاني الفصول الأخيرة من توطيد الحكم الإمامي حيث قمعت ثورة بني بو علي، وأسقطت قلعة الحزم وهزم مدافعوها من

اليعربيين. «وفي خريف عام ١٨٦٩ وصل نفوذ الإمامة في عمان إلى ذروته»^(٢٣).

مزج الإمام خلال حملاته بين الأساليب العنيفة وأساليب اللين ضمن فهم القيادة الإمامية العميق لواقع المجتمع القبلي الذي تتحرك وسطه. لقد عفى الإمام عن أعدائه حين هزمهم في البريمي ونزوى. وأثبت أن لينه في محله. ولم يحالفه التوفيق كثيراً حين استخدم اللين والعفو تجاه بني بو علي حيث أنهم أسهموا إسهاماً بارزاً في إسقاط دولته فيما بعد^(٢٤). ولقد مرّ كيف أن الخليلي أبدى استياءه من معالجة عزان بن قيس لثورة البو علي. وبعد سجنهم دبروا عملية هروب، وساعدوا تركي بن سعيد فيما بعد في مواجهته لعزان.

لم تدع السنوات الثلاث المضطربة الفرصة الكاملة للقيادة الإمامية أن تضع كافة تصوراتها الإقتصادية وإجراءاتها العملية محل التنفيذ العملي. ولكن الفترة القصيرة لم تحل بأية حال من إجراءات تلقى الأضواء على طبيعة الأفكار التي كانت موضع القبول من الأوساط الإمامية. ولقد كان العقل المفكر وراء الإجراءات الإقتصادية والمالية الشيخ الخليلي أيضاً. وسارت التطبيقات الإقتصادية مستهدفة غرضين: الجانب الأول وهو ترتيب الحياة الإقتصادية وبالذات بعد استيلاء الثوار على مسقط وبالتالي اضطرابهم للتعامل مع مشكلات الإقتصاد العُماني برمته. ووجد القادة وهم القادمين من مناطق الداخل ذات الإكتفاء الذاتي إلى حد كبير، والتي لم تكن على إحتكاك بالتطورات والمتغيرات التي شهدتها سواحل المحيط الهندي وموانئه مع مجيء الأوروبيين، وهي في ذلك تختلف عن طبيعة حياة المدن الساحلية العُمانية ذات الإقتصاد المنفتح. لقد كان الساحل هو المحطة التي تفرض فيها الضرائب على البضائع القادمة من الداخل أو الواردة إليه، وبالتالي كان الداخل ينظر إلى الساحل ومسقط بالعداء

التقليدي الذي ينظر به المنتج والمستهلك إلى التاجر الوسيط . وستم
خسون من السنون تالية حيث سيعاد بحث الموضوع برمته في الأحداث التي
لن تقل تأثيراً وفعلاً عن سنوات إمامة عزان ، وستشكل مسألة العلاقات
الإقتصادية بين الداخل والساحل ومسألة ملكية المزارع المتبادلة في
المنطقتين ، ومسألة الجمارك والضرائب على الوارد والصادر من الداخل
وإليه محور معاهدة السيب الشهيرة الموقعة عام ١٩٢٠ بين الإمام محمد بن
عبدالله بن سعيد الخليلي والسلطان تيمور بن فيصل بن تركي .

يتحدث لاندن عن هذه الوضعية وهو لا يخفي تعاطفه مع المعتدلين في
مواجهة المحافظين أو المتشددين ، ويقصد بهم الإماميين ، فيقول : « في
الواقع أن النزعة الضيقة للمحافظين لم تكن في صالح المناخ الاجتماعي
والإقتصادي في مسقط ، حيث كانت تتعايش الديانات ومختلف العقائد في
حرية تامة » ، ويقول بأنه تم طرد أغلبية التجار المرموقين ممن كانوا
يقومون بنشاط تجاري هام من البلاد والعاملين في مسقط خلال حكم الإمامة
في سنة ١٨٦٨ ، ويضيف بأن حظ التجار المتمتعين بالحماية البريطانية لم
يكن أفضل من غيرهم ، فقد ساء وضعهم في ظل هذا الحكم حسب ما يذكره
لاندن^(٢٥) . ويورد كتاب لاندن بأن عدداً كبيراً من التجار الهنود قد
اضطروا إلى ترك البلاد والانتقال إلى زنجبار وغيرها من مراكز التجارة
على ساحل المحيط الهندي مستصحين معهم أموالهم وتجارهم . وكانت
الأكثرية من أفراد الجالية الهندية في عُمان تفتقد إلى سرعة الحركة ، ولهذا
تحملت خسائر جسيمة . وكان عدد كبير من هذه الجالية يملك عقارات
وديوناً ، أو غيرها من الأموال غير المنقولة . ولقد تعذر على الهنود تحصيل
الديون التي لهم على التجار العرب المحليين . ولكنه يذكر بأن سنة ١٨٧٠
شهد خفة في حدة مقاومة النشاط التجاري والجاليات التجارية العاملة في
البلاد ، ولكن الأوضاع بوجه عام لم تتحسن ، وكان لا بد لهذا الإضطراب
في الأوضاع التجارية من أن يسبب انخفاضاً في دخل الدولة من الجمارك .

يقول لاندن بأن حكومة الإمامة لم تبدأ في الإهتمام بالمشاكل الإقتصادية
للمنطقة الساحلية إلا قبيل سقوطها بقليل . إلى هنا وينتهي حديث
لاندن^(٢٦) .

لا نمتلك معلومات كافية للحديث عن مجريات الوضع الإقتصادية ، ولا
نملك المعلومات التي تتحدث عن اضطهاد مارسه الإماميون ضد الأجانب
كأجانب ، أو ضد التجار كتجار . لقد كانت مسقط وعُمان موضع إعجاب
الأوروبيين إزاء التسامح الذي كانت المدينة وأهاليها وحاكمها يبدونها تجاه
الأجانب . وإن استعراضاً لبعض الشهادات الأوروبية على مدى القرن
الماضي ، وفي السنوات التي سبقت قيام الإمامة يلقي بلا شك أضواء على
الجانب قيد البحث .

يتحدث فنسانو موريزي في تاريخ السيد سعيد (١٨١٩) فيقول :
« قُدر عدد السكان بنحو ٦٠٠٠٠٠ بما فيهم ٤٠٠٠ من الهندوك (البانيان)
وعدد قليل من اليهود ، ولا يوجد أحد من الأوروبيين ... كما أن العرب
كرماء للغاية ، لا يأنفون من تناول طعامهم مع النصارى » . ويقول جيمس
بكنجهام في رحلات إلى آشوريا وميديا وبلاد الفرس (١٨٣٠) أن مسقط
يبلغ عدد سكانها نحو ١٠٠٠٠ نسمة يؤلف العرب ٩٠٪ منهم ، إلى جانب
عدد قليل من اليهود ... والأجانب يدفعون ٥٪ ضريبة صادر ، بينما
العرب يدفعون ٢،٥٪ . ويتحدث جيمس بيبي فريزر في مذكرات رحلة
إلى خراسان أن مسقط يبلغ عدد سكانها « ما بين ١٠ آلاف و ١٢ ألف
نسمة فيهم نحو ألف من اليهود » . ويقول الكابتن جورج كيبيل في مذكرات
رحلة من الهند إلى إنجلترا (١٨٣٧) : « ويتميز أهل البلاد باحترامهم
للقانون والتسامح تجاه الأديان الأخرى » . ولكن وليم ملبيرن يقول عن
التجارة الشرقية (١٨٢٥) عن مسقط بأنه « لا يسمح لغير العرب والهندوك
بالإقامة داخل المدينة » ، ولربما قصد أنه يسمح لباقي الأجانب بالإقامة في

مطرح . أما رابى ديفيد بيث هلل ، فيقول في رحلات (١٨٣٤) ، بأنه « توجد في مسقط أربع عائلات يهودية ولهم معبد يؤدون فيه طقوس ديانتهم ، وهم يقرضون المال بالربا ، والناس يعاملونهم معاملة حسنة ، كما توجد نحو ١٠٠٠ عائلة هندية و ٦٠٠٠ عائلة مسلمة تعيش في منازل جميلة » . ويتحدث الكاتب جورج بروكس فيقول عن المدينة « في مذكرات عن رحلات بحرية إلى الخليج ، (١٨٣٥) عن المدينة « يتراوح عدد سكان مسقط بين ١٢ ألف و ٣٠ ألف ، ويقيم فيها نحو ٢٠٠٠ هندي ، وبعضهم له نفوذ في البلاد » . ويؤكد الأب يعقوب سامويل في رحلة تبشيرية (١٨٤٤) بأنه « زار مسقط في شهر أبريل ... وقد خطب في بعض اليهود الذين يوجد منهم في مسقط نحو ٣٥٠ أسرة يقيمون على ساحل الباطنة ... ومسقط البلد الوحيد الذي يعامل الهندوك بتسامح ، ويقلل التعايش معهم ، كما يسمح لهم بممارسة معتقداتهم » . ويقول ويلسون في رحلات في شبه الجزيرة (١٨٣٨) بأن « عدد سكان مدينتي مسقط ومطرح يقدر ب ٦٠,٠٠٠ وعدد الهندوك ب ١٥٠٠ » . ويتحدث جويباو (١٨٥٦) في مذكرات رحلة إلى البلاد الآسيوية ، فيقول بأن اليهود يواجهون « صعوبات في مناقشة التجار الهندوك الذين يعيشون كما لو كانوا في بلدهم » (٢٧) .

وتعطينا مجموعة هذه المقتطفات صورة تمكننا من الاستنتاج بأن مسقط كانت منطقة ، وجد فيها الأجانب وذوو الديانات الأخرى تسامحاً على مدى طويل ، وأن بعض هؤلاء كانوا يمارسون مسألة التسليف ويفرضون الربا بالمقابل ، وإذا كانت هذه الحالة قائمة بالنسبة لليهود ، فلا نعتقد بأن الهندوك لم يمارسوها بدورهم . وطالما اشتكى التجار العرب وبالتحديد العُمانيون من سياسات الهندوك في التسليف في زنجبار ، مما أدى إلى أن يفقدوا استقلالهم قليلاً قليلاً هناك ، في مواجهة تزايد هيمنة الهندوك المالية في زنجبار . كما أن الصعوبات المالية التي عانى منها فيصل بن تيمور

وتيمور بن فيصل في بداية القرن ، كانت مترافقة مع تزايد مديونيتهم لكبار التجار الهنود . وحتى سعيد بن تيمور الذي وقف بحزم من أجل التخلص من ربة تلك الديون ، لم يتمكن من تخفيض السيطرة الهندية على مجريات الأمور التجارية والمالية في مسقط .

وبالرغم من وجود تسامح عام في البلاد العربية تجاه أهل الذمة وتجاه الأجانب بشكل عام ، إلا أن هذا التسامح الذي كان في عُمان لم يترك ليأخذ مجراه الطبيعي والذي كان قائماً على مدى القرون ، وإنما عملت بريطانيا بدورها على تسميمه والدخول من خلاله للضرب بين العرب والهنود ، وهذا ما لم يكن قائماً في العلاقات التاريخية القائمة أثناء ممارسة التجارة عبر المحيط الهندي والسواحل على أطرافه . فبريطانيا بحكم وجودها الإستعماري بالهند جعلت من نفسها حامياً للتجار الهنود بمواجهة العرب ، وهو ما لم يكن الطرفان بحاجة إليه . وهكذا لم تتردد بريطانيا في شن هجوم واسع ضد قبائل البوعلي حينما شنوا غارات ضد مدينة صور أثرت على بعض التجار الهنود . وقامت بقصف سواحل الجزيرة العربية الشرقية في منتصف الستينات ، وذلك حين حلت السعوديين مسؤولية ما جرى للتجار الهنود في صور والشرقية من عُمان بسبب التأثيرات المذهبية القائمة في تلك المنطقة .

وعلى ذلك فمما لا يخفى بأن التجار الهنود والذين كانوا هم من التجار الكبار ، إن لم يكونوا يشكلون كبار التجار بشكل عام ، كانوا يتوجسون خيفة من تأخر الإعتراف البريطاني بالإمام لما يعنيه ذلك من فقدانهم لميزات وضمانات ثمينة . ولم يكن من المتوقع أن تحدث كل هذه الأمور العاصفة بالبلاد ويبقى التجار بشكل عام والهندوك على وجه الخصوص على مبعدة منها . ولم يكن بوسع التجار الهنود بحكم منشأهم ومصالحهم أن يقاوموا إغراءات الهجرة وترك البلد في ظل اضطراب الأوضاع ،

ويتوجهوا إلى منطقة يحصلون فيها على الحماية البريطانية. وتجمعت هذه الظروف لكي تدفع بهم إلى المغادرة.

ولا تذكر لنا المصادر العُمانية شيئاً عن توجهات محددة ضد التجار والأجانب منهم على وجه الخصوص. والحادثة الوحيدة المذكورة لنا هو ما قام به أحد البدو بمهاجمة أحد التجار الهندوك بطرح حين محاولة السيطرة عليها، ويذكر صاحب التحفة بأن صالح بن علي قد زجر هذا البدوي بشدة. ويذكر لنا صاحب التحفة حادثة أخرى تظهر التشدد الذي مارسه الإمام على جنود، وذلك حين مرورهم بالسعوي في طريقهم إلى الجو أو البريمي وكان الأمباء (وهو فاكهة مدارية) بها كثيراً وكان لحسنه وكثرته فيها يضرب به المثل فيقال أمباء العوهي، وكان ذلك الوقت وقت نضاجه، فذكروا أن ثمر الأمباء كان يتساقط على فرش القوم ولا يتناول أحد منه شيئاً، فلما هموا بالرحيل نفضوا فرشهم وبقي الأمباء مكانه. وذكروا أن خادماً للإمام، قيل بل مزيّنه، وهو المحسن أخذ أمباء واحدة فأكلها فأل من الإمام على الزجر والتوبيخ، ولم يبلغ به حد العقوبة لأن الثمرة كانت ساقطة بنفسها وكان الورع كما ترك ذلك باقي الجيش»^(٢٨).

وهكذا وإن لم نستبعد تماماً أن يكون موضوع التجار قد مسته بعضاً من الإجراءات، ولكن ما دعاهم إلى المغادرة وتعرض الوضع الإقتصادي والمالي للدولة للخطر وللتجارة دورها النافذ في موارد الدولة حينذاك، كانت أسبابه مرتبطة بشكل أكيد بالوجود البريطاني وبالحماية الذي يوفرها لهم.

وتمثل الجانب الثاني من الإجراءات المالية والاقتصادية التي أقدمت عليها القيادة الامامية أزاء الأوضاع الصعبة ما قامت به استجابة لضرورة مواجهة تكاليف الاعمال العسكرية. فلقد «أرسل الإمام التعاريف مع

بعض الثقات إلى الشيخ الخليلي وكتب له في ذلك، وكان بيت المال قد نهكته الدول وأخذته المصاريف لإعزاز الدولة»، وألحت الحالة في ظل تزايد الضغط العسكري على الجهات الشمالية من طرف السعوديين. وكان عزان يريد أن يفرض قرصاً على أهل عمان. فكتب إليه الخليلي موافقاً «...و... حكم الدفاع يلزم جميع أهل عمان بأموالهم وأنفسهم... إني مجتهد لله ومتقرب إليه وإن كان في المسلمين من ينكر جوازه أو يرى باطله فأنا أحاكمه إلى آثار المسلمين وسيرهم، وهي بحمد الله موجودة، وإن كانت من مسائل الخلاف، ولكن التوسع في الرأي المختلف فيه في وقت الضرورة أعز للدولة وأنفع للأمة، ولا تنظر إلى ما يلقون من مشقة الحال وذهاب بعض المال، فإن المريض لاجل طلب العافية يداوي بالبط والكي وقطع بعض الأعضاء لسلامة العمر، وأن كان ضعيف القلب يؤلمه ذلك من غير نظر في العواقب فالعاقل لا يلتفت إليه... عرّف إبراهيم وصالح يلاقوك بجيشهم... يأخذوا القرض ويلزموه الناس، وإياك تسمع الوسائل والمتشفعين جزاهم الله خيراً، وإياك أن تأخذ من الفقراء والضعفاء ومثل أهل السب وبركا المدودين بالغرامة، والامتحان من زمن ثويني وسالم وتترك الأقوياء والياسير أهل الباطنة...»^(٢٩).

ويبدو أن هذا الأمر كان رأياً للخليلي رأى أن يجري النقاش حوله فقد طلب من عزان أن يعرضه على الشيخ محمد بن سليم وأن يقوم الأخير بعرضه بدوره على «كل ذي معرفة» فإذا رأوا بأنه الصواب «فقد ألزمتنا العمل به إن كنت تراه صلاحاً وقواماً للدولة، وهو رأينا ولا نلزمك إياه إن رأيت الصلاح في غيره»، وأشار إلى أنه أن لم يتمكن الشيخ محمد بالامر به «فليسكت، وإن لم يقدر يسكت فدبره يسير إلى صحار أو مجيء عندنا»^(٣٠).

وجرت مناقشة مسألة أموال «الملك من قبل الإمام» وإباحة

الاستيلاء عليها، فقام الخليلي بإباحة الاستيلاء عليها» [و] ورأى أن سبيل هذه الأموال سبيل أموال بني نبهان التي حكم فيها الامام عمر بن الخطاب بن محمد الخروصي رحمه الله تعالى « وكان الشيخ الفارسي قد قال بصحة أخذ أموال من مات منهم دون الأحياء، كما سبق القول. وقد أخذ الامام تلك الاموال و اضافها الى بيت المال وباع منها جملة اصول « وانفدتها في عز الدولة »^(٣١). ويقول ويلكنسون بأن هناك ثلاث حالات جرت فيها المصادرة من قبل ائمة ليهود سابقة. وأن كل حادثة مصادرة قد حدثت بالرغم من وجهة نظر المعتدلين حسب رؤيته، وأنها اثبتت، أي المصادرة، بكونها سلاح ذو حدين في النهاية وهي تلك التي حدثت لمصادرة ملكية السلطان مظفر بن سليمان النبهاني وبني رواحة عام ١٤٨٢ وحادثة عزان بن قيس عام ١٨٦٨ وتلك التي حدثت اثناء امامة سالم بن راشد الخروصي في ١٣ - ١٩٢٠^(٣٢).

لقد عاشت الامامة بشكل عام أوضاعا اقتصادية صعبة، زاد من حداثها عدم حصول الامام على معونة زنجبار بسبب تخوف حاكم زنجبار من جهة وبسبب عدم اعتراف بريطانيا به من جهة أخرى^(٣٣). ولم تتمكن لاسباب عديدة، من بينها قصر فترتها من جانب، وعدم امتلاكها القدرة او القرار لمواجهة بريطانيا على الشاكلة نفسها التي واجه فيها الامام سلطان بن سيف اليعربي البرتغاليين، لم تتمكن لكل ذلك من حل المضلات الاقتصادية ولم تتمكن من طرح بدائل للتدهور الاقتصادي والسياسي الذي عاشته عمان حينذاك مما أبرز العديد من القوانين والاجراءات المطبقة، كأمر مستحدثة لم توجد في فترات الحكم السابقة مما يجعل العداء للسلطة الامامية يشمل أناسا وفئات اجتماعية متزايدة، وخلق أرضية اجتماعية سهلت مجيء تركي بن سعيد فيما بعد.

هوامش

(١) تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٩٨ وما بعد.

(٢) م. ن. ١٩٩.

(٣) م. ن.

(٤) كتب الخليلي رسالة الى أهل المغرب من الإباضية وهذا نصها:

« بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي أيد الأحكام الشرعية بسيوف الأئمة، وجعل الحجة لهم وعليهم في ذلك علماء الدين الذين بهم كشف الغمة، وكشف بعدهم وأنوار هداهم حنادس الجور المدلعة، فهم الدعاة إلى الله تعالى والهداة إليه، وبهم أكمل دينه وأتمه، وصلى الله على سيدنا محمد الذي أرسله الله لجميع العالم رحمة، وعلى آله وصحبه الذين لا تنكر فضائلهم الجملة وسلم، ونهني إبلاغ السلام الوافر وتجديد الثناء الفاخر ونشر هذا الخير العاطر إلى كافة من بأرجاء المغرب وأقطار الأرض من المسلمين أهل الإستقامة في الدين من أهل العلم والفضل والحلم، والفصل والعقد والحل وأرباب العقل والنقل من المشايخ الكرام، وجهابذة الأعلام وأهل الإجتهد في الإسلام من هم خيرة الأنام والدعاة إلى دين الملك العلام. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالباعث لتحرير الكتاب يا أهل المغرب إعلامكم بأن إخوانكم من أهل عُمان قد قاموا لله تعالى في هذا الزمان جهاداً في سبيله وابتغاء مرضاته لما كثر الظلم وانتشر الإثم وانتهكت المحرمات وعطلت الحدود

وسفكت الدماء وتمطلت الأحكام وخربت المساجد وترأس الفسقة وتعاضم الجهلة، فانتدب لذلك أهل العلم وبقية السلف وأولو الغيرة على دين الله وذوو الحمية فيه، فباعوا أنفسهم لله تعالى وخرجوا على سلاطين الجور، فأمكنهم الله من رقابهم وأذل بهم شوكة الجبابرة فأخرجوهم من الممالك صاغرين وكانوا لهم بحمد الله قاهرين، فقدموا لهم إماماً ذا ثقة ودين وعقل وشهامة وبطش شديد في المعتدين، وهو الإمام الأوحى والمقدام المؤيد والمهام المسدد ذو السطوات الهائلة والعزمات القوية لنصر الله تعالى إمام المسلمين عزان بن قيس بن عزان بن قيس بن الإمام، فهو الآن القائم بعُمان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويظهر السنن ويميت البدع ويفيئ الملهوف ويرشد الضال ويفيض ويقبض على يد كل جبار عنيد وفاسق مريد، فينفذ فيهم حكم الله ولا يتجاوز بهم إلى ما لم يأذن الله به من الوعيد.

ولما كانت هذه من أكمل النعم الدينية والمعارف الإلهية لظهور ما كان درس من الأحكام الشرعية، وجب أن نعرفكم بها لأنكم شركاء في كل ما كان من الأمور الدينية المحمدية، هذا ما لزم بيانه، والسلام عليكم من كافة اخوانكم أهل عُمان، من إمام المسلمين عزان بن قيس، ومحمد بن سليم الفاربي وصالح بن علي الحارثي وسالم بن عديم الرواحي، وحمد بن سليمان اليمحمدي، وكاتب الأحرف بأمرهم أخيك سعيد بن خلفان الخليلي بيده، تاريخ يوم اثني عشر من ذي القعدة سنة خمس وثمانين ومائتين وألف، ١٠٠٠ هـ. الكتاب بتاريخه «تحفة الأعيان» ج ٢، ص ٢٠٠.

(٥) لاندن، ص ٦٨ - ٢٦٩ وما بعدها.

(٦) م.ن.

(٧) م.ن. ص ٧٤ - ٢٧٥.

(٨) م.ن. ص ٢٦٦ وما بعد.

(٩) تحفة الأعيان، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(١٠) لاندن، ص ٢٦٥ وما بعد.

(١١) تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٢٥٣.

(١٢) م.ن. ٢١٣ وما بعد.

(١٣) م.ن. ٢١٣ وما بعد.

(١٤) م.ن.

(١٥) م.ن.

(١٦) م.ن.

(١٧) دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤، ١٠٥ و ١٠٩ و ١١٢.

(١٨) لاندن، ص ٢٦٥.

(١٩) تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٢٠) م.ن. ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٢١) لاندن، ص ٢٦٩.

(٢٢) ج.ج. لوريير، دليل الخليج، ج ٢. طبعة جديدة معدلة ومنقحة أعدها قسم الترجمة بمكتب أمير دولة قطر (خليفة بن حمد آل ثاني)، ص ٧٤٨.

(٢٣) لاندن، ص ٢٧٢.

(٢٤) تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٦٦ - ٢٦٧.

(٢٥) لاندن، ص ٢٧٦.

(٢٦) م.ن.

(٢٧) روبين بيد ويل: عُمان في صفحات التاريخ، ترجمة محمد أمين عبدالله.

عُمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٠، ص ٣٥ وما بعد.

(٢٨) تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٢٠٨.

(٢٩) م.ت. ص ٢١٧ وما بعد.

(٣٠) م.ن.

(٣١) م.ن. ص ٢١٦.

J. C. WILKINSON. Water and Tribal Settlement in South (٣٢)

East Arabia, Oxford Clarendon Press, 1977. P. 155.

(٣٣) لوريير، ص ٧٦١.

الباب الرابع

« إن والدكم المرحوم هو الذي طلب من دولة الإنجليز قيام
وكيلها منه قريباً ، وترى ... أن مسقط كانت لتوقع تحت
الأرض لولا أن دولة الإنجليز خلصتها بيدها القوية مرات
عديدة » .

هنري جون مارسيل

وكيل الدولة البريطانية بزنجبار في رسالة بعثها
إلى برغش بن سعيد بن سلطان في ١٠ تشرين
الثاني ١٨٧٠ .

جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار

الباب الرابع

باب المركز والأطراف والخارج

واجه عزان بن قيس ، مثله في ذلك مثل أي حاكم عُمان منذ القرن السادس عشر مسألة العلاقات الخارجية لعمان بتعدد أطراف هذه العلاقات وتنوعها وتمايز مستوياتها وأولوياتها . ولعلاقات عُمان الخارجية مواصفات تنفرد بها بحكم كونها إحدى مناطق الأطراف في الوطن العربي من الناحيتين التاريخية والجغرافية . وسنضطر في هذا الفصل إلى الخروج من الخاص للعام ، لبحث موضوع علاقات الأطراف بالمركز العربي وما قد شابهته من أمور وشهد تغيرات منذ أن بدأت القوى الأوروبية تتدخل في مسار تلك العلاقات وتحاول أن تحيّر بعض الظروف وتضخمها لجعلها تصب في مصلحتها . وبأية حال فإننا نستطيع القارئ عذراً أمام استطرادنا لبحث هذا الموضوع قبل أن نعاود رؤية ما جرى أثناء إمامة عزان بن قيس في هذا المجال . سنقوم ببحث ما سمي في الأدبيات الأجنبية « بالعزلة العُمانية » حسب ما ورد في بعض الكتب الخاصة بعمان ، وكيف شكلت تلك الآراء خلفية ارتكزت عليها مجموعة من السياسات البريطانية في مواجهة المركز العربي . وسنعود بعد ذلك لبحث مجريات السياسة الخارجية من فترة ١٨٦٨ - ١٨٧١ ، بعمان .

ولا يزال موضوع الوحدة والتجزئة في الوطن العربي يحتل موقعا بارزا ومركزيا في أوساط القطاعات الساحقة من الجماهير العربية ، وفي أوساط المفكرين والقادة السياسيين والمناضلين العرب رغما عن كل التجارب

والصعوبات التي مرت بها هذه القضية ، وما أحرزته من انتصارات بدت محدودة ، وما واجهته من نكسات ولقيته من هزائم ، ورغماً من الأسلحة المادية والفكرية التي يشرها الأجانب في وجه المحاولات العربية النبوية لتحقيق وحدة هذه المنطقة المترامية الأطراف ، المليئة بظواهر التعدد ضمن الوحدة ، والتي تعج بثروات وإغراءات ذات أهمية اقتصادية لا تخفى على القوى المحيطة . واستمرت هذه المحاولات ، رغماً عن التشويش الفكري الذي تعرض له قطاع واسع من المثقفين العرب ، ولا يزالوا ، عبر ابتلاعهم للتجارب الأجنبية والأوروبية منها على وجه الخصوص ، بصالحها وطالحها ، وغثها وسمينها ، دوناً قدرة على الانطلاق من واقع هذه المنطقة ومصلحتها ، ورؤية قضاياها ، من على أرضها وبالمعرفة العميقة بالقوانين الفعلية التي تحرك مسار الأمور فيها .

وتنبع استمرارية هذه المسألة ، أي قضية الوحدة والتجزئة ، من تعبيرها عن مصالح هذه الأمة الجوهرية ، وارتكازها على أرضية مادية صلبة من التاريخ والإقتصاد والجغرافيا . وهي تفرض نفسها من هذا المنطلق أيضاً فرضاً ملزماً ، وتقحم نفسها إقحاماً لا مناص منه ولا مهرب على الحياة السياسية العربية ، الرسمية والمعارضة ، العلنية منها والسرية .

وتبرز ضمن الأمور ذات الأهمية هنا ، قضية العلاقة بين أطراف الوطن العربي ومركزه ، كيف سارت ونمت وكيف تطورت وتغيرت بناء على مسار التاريخ الذي أوصل القوى الأجنبية الأوروبية إلى تماس مع كافة أطراف المنطقة العربية ، في وقت كانت فيه هذه القوى في وضعية الفعل والقوة ، وكان العرب في وضعية رد الفعل والضعف .

وعبر مئات السنين ، وتحديدأ منذ بروز الدول المركزية العربية بعد قيام الإسلام (دون إغفال الدول السابقة للإسلام) ، شهدت العلاقة بين مركز الوطن العربي ، وأطرافه صراعات مختلفة ، وحين تمكن المركز من

إحكام سيطرته وتثبيت هيمنته على الأطراف ، أظهرت بعض تلك الأطراف روحاً تنجح نحو الانفصال عن سيطرة المركز ، أو روحاً ترمي إلى الإطاحة به وتأسيس مركز جديد يشد إليه الأطراف . ولعبت العوامل الجغرافية ، والبشرية ، دوراً في وضع الصراع ومدى تزايد ، وخفوته وتضاعده ، وطبعه بطابع معين . غير أن هذا الصراع كان يجد بشكل عام ، بأفق معين ، وبنطاق مقبول ضمن سياق العلاقة بين المركز والأطراف .

ولقد ترافق الاهتمام الاستعماري بمناطقنا ، بازدياد دراسات المستشرقين ، والمختصين الذين حاولوا القيام بدراسة هذا الموضوع ، فشابت دراساتهم مسألتان تأثرت بهما بتفاوت ، ولكنهما ظلتا تحكمان مسار الدراسات الأجنبية وتطورها تجاه بلادنا ، وذلك بوجه عام :

١ - المصالح الأجنبية التي يمثلونها ، وهم في ذلك يتصرفون بشكل طبيعي ومتناغم مع أنفسهم ومصالح دولهم الوطنية (التي تجد نزعاتها المتطرفة في الإستعمار والامبريالية) ، دون تعسف أو قسر .

٢ - الأرضية الحضارية والثقافية ، التي نشأوا عليها ، وفرضت عليهم مقاييس معينة ، اعتبروها المقاييس العلمية ، والعالمية الوحيدة التي ستقاس الأمور عليها .

وفيا لموضوعنا قيد البحث فسنستطرق إلى بعض الأطروحات التي طرحها ثلاثة من كتاب الغرب في دراستهم لعُمان وعلاقتها مع المنطقة العربية ، عبر التاريخ ومحاولة نقاش هذه المسائل للخروج باستنتاجات على ضوء ذلك النقاش ، متخذين من ذلك مثلاً يمكن أن يفيد في رؤية مسألة الأطراف والمركز وعلاقتها بمناطق عربية أخرى ، ويساعد في رؤية مسار التجربة الإمامية التي قامت في عُمان ١٨٦٨ - ١٨٧١ ، والمآزق التي واجهتها حين الانتقال من مواجهة أوضاع الداخل ، إلى أمور المركز

والدول المجاورة، ومواجهة الخارج، أو القوى الأوروبية، وربما أضاءت تلك القضايا شيئاً أو بعض شيء من ملحات الواقع الراهن.

لقد وردت تلك الآراء على شكل استنتاجات من ثلاثة كتب صادرة عن عُمان في السبعينات من قرننا هذا. وهذا ما يعطينا نوعاً من الثقة في أن البحاث قد اطلعوا على آخر التطورات في عُمان واحتكوا بها، واستفادوا من آخر ما وصلت إليه الدراسات والأبحاث حول المنطقة، وإن كان صدورها المتواتر، قد يؤدي إلى امكانية اعتماد كل منهما على الآخر، ولكن ذلك ليس بالطبع مبرراً كافياً على أية حال لتكرار نظرات لم تحز على قبول كاتبها وقناعاتهم.

والكتاب الأول لبولين سيرل، وهو بعنوان الفجر على عُمان، طبعته مطبعة خياط عام ١٩٧٧ وأعيدت طباعته في بريطانيا عام ١٩٧٩. والكاتبة زوجة رجل يعمل في مجال النفط، وقد عاشت في عُمان تسع سنوات متتالية: (Pauline Searle, Dawn Over Oman).

أما الكتاب الثاني فقد كتبه جون تاونسند، وهو بعنوان عُمان، تأسيس دولة حديثة. وقد صدر عن دار كروم - هيلم ببريطانيا وطبع مرتين في عام ١٩٧٧، ولقد عمل الكاتب بين ١٩٧٢ - ١٩٧٥ كمستشار اقتصادي للحكومة العُمانية. وقد عمل لمدة تقل عن العام كمستشار ضمن فريق من المستشارين للسلطان السابق وذلك بين نيسان ٦٩ وأيار ١٩٧٠. وزار عُمان بتقطع بين الفترة الأولى والثانية:

(John Townsend, Oman (The Making of the Modern State).

وكتب الكتاب الثالث جون إى. بيترسون، وهو باحث في شؤون الشرق الأوسط في مكتبة الكونغرس الأميركي بواشنطن. وقد صدر الكتاب عن دارين للنشر أميركية وبريطانية، في عام ١٩٧٨:

(John E. Peterson, Oman in the Twentieth Century)

وتندرج آراؤهم، والإنتظام، على النحو التالي، ضمن تقسيات طلبا للتسهيل، فيما سيرد تباعاً.

أولاً: آراء الكتّاب الأجانب فيما أسموه «بالعزلة العُمانية»

تتوزع نظرات هؤلاء الكتّاب على مجموعة من المسائل، والتي يتوصل عبرها كل منهم إلى الظروف الخاصة بعُمان والتي تجعل من وضعها خصوصية معينة ضمن المنطقة العربية، وفي مواجهة المركز. ونستعرض فيما يلي هذه المسائل حسب ورودها:

١ - الوضع الجغرافي والسكاني

تتحدث بولين سيرل حول هذا الموضوع فتقول: «ميزة عُمان المهيمنة كانت دائماً تشكيلها القبلي، المترافق مع إنعزالها الجغرافي. وأنتج هذين العاملين مجتمعاً إنعزالياً لا يزال حاضراً حتى الآن في داخلية عُمان»^(١). وتؤكد أن عُمان «تحتفظ بأسرارها بكتان. هناك القليل من السجلات التي يمكن الركون إليها فيما يخص تاريخها وعاداتها»^(٢)، و«حتى منتصف عام ١٩٧٠، كانت عُمان معروفة بأقل ما يمكن في العالم. جغرافياً كانت معزولة بواسطة البحر العربي إلى الشرق والربع الخالي إلى الغرب، والجبال إلى الشمال والجنوب. ويحكمها سلطان رجعي وأوتوقراطي دون موارد واضحة. وكان يُمكن لعُمان أن تبقى هكذا إلى ما لا نهاية. ولكن إكتشاف النفط غير كل شيء»^(٣).

ويتحدث تاونسند ضمن هذا الموضوع فيقول «على المدى التاريخي، تمثلت في عُمان مميزات الجزيرة، فحتى ١٩٧٠ كانت هناك ثلاث طرق صعبة فقط، تقود من العالم الخارجي إلى عُمان»^(٤)، وحتى تموز ١٩٧٠ «كانت عُمان معروفة أقل من أي دولة أخرى في العالم، وأكثرها عزلة»^(٥). وعندما قدم البرتغاليون إلى خارج سواحلها في بداية القرن السادس عشر وجدوا أن سكان السواحل «لا تزال موالية للملك الموجه

فارسيًا ، وهو ملك هرمز ، وإن سكان داخلية عُمان الجبلية [العرب] كانوا مستقلين تماماً»^(٦). وينتهي في وصفه للأوضاع السكانية والإثنية في عُمان إلى القول بأن «عُمان ، إذاً ، هي بلد لا يمتلك تماسكاً وطنياً طبيعياً ، إثنيًا أو جغرافياً»^(٧).

أما بيترسون فيقول «ينتمي البلد إلى وضع متميز يشابه الجزيرة ، ولذلك أخذ العُمانيون ينظرون إلى عبر البحار بنفس القدر الذي ينظرون به لبقية الأجزاء من الجزيرة العربية»^(٨) ، وبشكل عام تنقسم البلد إلى قسمين أساسيين منكفئين على نفسيهما ، الساحل والداخل ، فالساحل ، كان عالمياً نسبياً وغير حصين ، كان دائماً معرضاً للغزو ولزيج من التأثيرات الحضارية الأجنبية ، بينما خدم الداخل تقليدياً كالمعقل العربي الإباضي»^(٩). و«في عام ١٩٧٠ أصبحت عُمان آخر دولة عربية تبدأ المحاولة للتخلص من قيود المجتمع التقليدي ، والعزلة»^(١٠).

ب - الإسلام والدولة المركزية

يتحدث تاونسند فيقول إن الإسلام «يناسب المجتمعات التي تعيش في عزلة مثل عُمان . حيث يمكن لأي تغيير أن يقلب التوازن الإقتصادي الدقيق ، وبالتالي يمكن أن يؤدي إلى كارثة»^(١١). «كانت عُمان في القرن الثامن الميلادي عبارة عن مجتمع يتكون من نسيج قبلي رخو الترابط على حافة العالم الإسلامي ؛ ومثل هذه المجتمعات لا يمكن لها أن تقبل بسهولة نير هيمنة الخلافة ، ومعها واجب دفع الضرائب ، وبسبب من بعدها عن مركز حكومة الخلافة ، وبسبب من صعوبة المواصلات من عُمان وإليها وبداخل البلد نفسها ، فإن أي حركة انفصالية يمكن أن تستغل هذه الفرصة متفادية هيمنة حكومة بعيدة ويقف في قلب هذه الحركة مبدأ القائد الروحي الذي ينتخب ديمقراطياً من أعضائها ، ممتلكاً موقعاً أكبر لرفض طلبات قوة مركزية مستبدة»^(١٢).

ويقول بيترسون «بالرغم من أن الخلافة العباسية التي خلفت الدولة الأموية وفيما بعد السلاجقة قد استطاعت إخضاع عُمان في القرون التي تلت ، فإنهما فعلتا ذلك لمدد قصيرة ، وبقي قلب عُمان إباضياً ومستقلاً بشكل عام حتى وقت قريب»^(١٣).

أما بولين سيرل فتقول «وعندما أصبح الخليفة المشهور هارون الرشيد حاكماً للامبراطورية الإسلامية واستطاع العُمانيون أن يكسروا حاجز السيطرة الأجنبية [الخارجية ربما Foreign Domination] وانتخبوا إمامهم ، وحتى عام ١٩٦ هجرية ، كان قد تم انتخاب ١٦ إماماً ، وقد أنهى التدخل الأجنبي Foreign Intervention»^(١٤).

ج - الإباضية والدولة المركزية :

يتحدث بيترسون حول الإباضية والإسلام فيقول «وبقيت عُمان كأرض إسلامية [منذ تبنيها الإسلام] ولكنها قطعت من الجدول الأساسي للمجتمع الإسلامي بسبب الطبيعة الإنعزالية للمذهب الإباضي ، والذي ينتمي إليه العديد من المواطنين»^(١٥).

أما تاونسند فيتحدث قائلاً «أن روح المحافظة الداخلية في الإسلام ، قد تعززت في عُمان بالإيماء المذهبي نحو الإباضية»^(١٦). والإباضية أصبحت «نقطة لم شعث يتجمع حولها العُمانيون للقتال من أجل استقلالهم . ومنذ الإمام الأول قاست عُمان لا أقل من عشر موجات من الغزو على فترة تقل عن مئتي سنة . وكان كل هجوم يحدد هدفه المقرر تخريب هذا المجتمع من المتدينين المستقلين ، الذين لا يعترفون بالخلافة ، والذين لا يريدون دفع الضرائب»^(١٧). ويشير تاونسند إلى أن القتال ضد الغزو كان عامل توحيد للعُمانيين الذين ما أن ينتهي صراعهم ضد الغزو ، حتى يبدأون في التقاتل فيما بينهم . غير أنه يشير بالمقابل إلى أن «العُمانيين كإباضيين ، لا يعتبرون أنفسهم كطائفة منقطعة ، بل هم المسلمون الحقيقيون»^(١٨).

وعودة إلى بيترسون ، فإننا نراه يقول بتحديد أكبر « فالدولة الإباضية الصغيرة ، اتخذت موقعاً دفاعياً إلتحمت مع جغرافية معينة ، ليؤثر في الإنعزالي في السياسة والتاريخ العماني . وكنتيجة لذلك نظرت عُمان إلى الداخل نحو مُثل الدولة الإباضية مع نزوى كمركز حضاري »^(١٩) . ويتحدث في مجال آخر ليصل إلى استنتاج يشابه حديث تاونسند في البداية ، فيقول ان وجود التجار الهنود « وغيرهم من المجتمعات غير العربية يظهر النقطة المهمة ، أنه بالرغم من الأرضية العامة للإباضية ، وللنظام القبلي العربي على حضارة عُمان وتاريخها ، فإن البلد ليست بأية حال متحدة حضارياً »^(٢٠) .

بذلك نكون قد استعرضنا جزءاً معقولاً من الأفكار التي تمثل الجوانب المختلفة لدى بعض المفكرين الأجانب ، وأصبح القارئ على بينة من المرتكزات التي يركز عليها هؤلاء حين حديثهم في هذا الموضوع .

ثانياً : إطلالة نقدية

لقد سبق للكتاب أن تحدث عن جغرافية عُمان وتاريخها . ولا بد أن نذكر في إطلالتنا هنا أنه ليس هناك من نية لإثبات عدم وجود مميزات جغرافية أو تاريخية طبعت التاريخ العماني ، وطبعت مسار العلاقة بين هذه المنطقة العربية الواقعة على التخوم وبين الدول المركزية المتتابة . ولكننا سنحاول أن نعطي الأرضية التي وقعت عليها هذه المميزات ، وآثارها وتفاعلاتها ، ومحدوديتها . ثم نرى المدى الذي شكلته هذه الميزات كمدخل للقوى الأجنبية وذلك بعد أن ضخمت آثاره وارتكزت سيطرتها عليه . ولربما اضطررنا إلى الاستعانة ببعض مقتطفات أو رؤى سابقة بحكم متطلبات السياق ، مما قد يضيف على الفصل شيئاً طفيفاً من التكرار . ويمكننا تسجيل بعض الملاحظات على ضوء المقتطفات السابقة على النحو التالي :

١ - يتحدث العديد من الكتّاب الأجانب وأحياناً العرب عن ندرة مصادر التاريخ العماني ، ومحدودية الكتابة عنه . ولكن يتوجب علينا التفريق بين تدوين التاريخ أو عدم تدوينه ، وبين كونه موجوداً ، وبين نشره . وما نريد قوله هنا أن هناك تسجيل لتاريخ عُمان منذ أن دخلها العرب ، في القرون الميلادية بقيادة مالك بن فهم الأزدي وحتى الخمسينات من القرن الحالي . ولقد درج المؤرخون العمانيون على كتابة هذا التاريخ والتواصل فيه ، فينقل المؤرخ عن من سبقه ويضيف إليه ما شاهده اللاحقون وما شهدوه هو بنفسه . وهكذا نجد لدينا مجموعة من الكتب ذات النظرة الموسوعية الشاملة للتاريخ العماني وللعمانيين على مدى القرون . ولا يزال الكثير منها مخطوطاً ، ولكن العديد منها قد أخذ طريقه للنشر . ونذكر في هذا السياق أسماء المؤرخين مثل ابن قيصر وابن رزيق والسليمان عبدالله بن حميد ومحمد بن عبدالله والمغيري ، وغيرهم من المؤرخين الذين كتبوا في مواضيع تتفاوت في الشمولية والتركيز .

ولقد أعلنت الحكومة العُمانية مؤخراً أنها جمعت ما يقارب الخمسة آلاف مخطوطة حول تاريخ عُمان ، وذلك ضمن ما يقرب من السبع سنوات فقط ، ولا يزال الدور في البداية . وما أردنا التأكيد عليه ، هو وجود تدوين للتاريخ العماني يعرفه تمام المعرفة أبناء عُمان وأبناء مناطق شبه الجزيرة العربية ، وتعرفه بالطبع التجمعات الإباضية في شمال إفريقيا وشرقها ، وكان موضع التدريس اليومي للتلاميذ العمانيين في المدارس التي انتشرت وازدهرت في نزوى والرساق وازكي وغيرها من المدن العُمانية .

٢ - وتبقى المصادر التاريخية العربية التقليدية معينة لا ينضب بالطبع . وكمثل على ذلك يفرد ابن رزيق ما يزيد على مائة صفحة من الفتح المبين ، للحديث عن المشاركة العُمانية أو الأزدية في المراحل المبكرة من الإسلام ، وعن رجال عُمان ونسائها اللائي وقفن إلى جانب رسول الله ،

ويسميه بالأسماء. وكان يستند في ذلك بالطبع إلى تلك المصادر أو على مؤلفات تستند إليها.

٣ - يشير العديد من الكتاب إلى الظواهر الموضوعية الجغرافية كعوامل مسببة للعزلة، غير أن هذه الظواهر لم تشكل فعلياً حاجزاً منيعاً على نحو الإطلاق، لا يمكن اجتيازه، أبداً من قبل. وإذا كان العرب لم يمتلكوا قديماً سفناً بحارية، أو سيارات مهيئة لاجتياز كثبان رمال الربع الخالي، أو طائرات لكي تحط على قمم الجبال، فلا يجب أن يؤخذ ذلك على أنهم قد وقفوا مشدوهين أمام وعورة الجبال أو اتساع الصحراء، أو ترامي أطراف البحر. ومنذ مجيء أولى الهجرات التي سجلها المؤرخون العُمانيون، تدفق العرب دوماً على عُمان، ومنها تدفقوا إلى مختلف سواحل الخليج العربي والمحيط الهندي، وتحديدًا إلى الهند وشرق إفريقيا، وأندونيسيا وغيرها من المناطق. ولا يجب أن ينسبنا ما سجله اللاحقون، وما سجله السابقون بطرقهم الخاصة، وهذا التسجيل الذي ربما لا يزال في باطن الأرض حول علاقات سكان عُمان الأقدمين بدلون والحضارات الرافدية المتعاقبة.

لقد كان هناك دوماً حداً أدنى من طرق الاتصال وأساليب المواصلات بين عُمان ومكة والمدينة والبصرة واليمن وغيرها من المدن العربية التي سبقت بوجودها ظهور الإسلام أو تلتها. وسكان عُمان بغالبيتهم الساحقة، كما رأينا هم من قبائل عربية خالصة، إما نزارية من شمال الجزيرة أو قحطانية من جنوبها، ولا ريب أنهم حينما انتقلوا، احتفظوا بعلاقاتهم كما احتفظوا بلغتهم وأصولهم، مع مناطق المصدر.

وإذا كانت مصادر المواصلات الغربية الحديثة أكثر فعالية، وتحقق الاتصالات بشكل أفضل، فلا يجب أن يعني ذلك أن وسائل المواصلات السابقة وتأثيراتها كانت تساوي صفراً. ولربما فاق ما امتلكه العُمانيون والعرب في

السابق، الوسائل التي كانت قائمة بأوروبا في ذلك الحين. وعلى أية حال لا يتوجب أن نسقط مقاييس ورؤى حديثة على واقع سابق، امتلك كل امكانيات بقاءه وتطوره الخاص.

ونخلص بالتالي إلى أن عُمان لم تكن أبداً جزيرة في المحيط، ولم تكن بقعة مقطوعة عن بقية أجزاء المنطقة العربية وتحديدًا، داخلية الجزيرة وشمال الخليج العربي، وجنوب الجزيرة الغربي أي اليمن.

٣ - كانت بين عُمان والحجاز قبل الإسلام علاقات متعددة تتجلى فيما ذكره النسابون من هجرة سامة بن لؤي من قريش إلى عُمان، وانتشار المنسوجات العُمانية والصحارية في الحجاز. ويشير العاني إلى أن أهمية عُمان التجارية والعسكرية كانت من العوامل التي دفعت بالنبي ﷺ إلى الاهتمام بعُمان^(٢١).

ويذكر أن أول المسلمين العُمانيين كان مازن بن غصوبة، وأنه بدأ في التشكك في عبادة صنم يقال له ناجر، وكان في وضع نفسي مهياً حينما ورد عليه رجل من الحجاز يريد دماً وأخبره عن ظهور النبي، فركب إليه مازن بن غصوبة على الفور. ويقابل مازن الرسول ﷺ ويطلب منه دعاءً لأهل عُمان، فقال النبي الكريم «اللهم أرزقهم العفاف والكفاف، والرضى بما قدرت لهم... اللهم وسّع عليهم في ميرتهم، وأكثر خيرهم من بحرهم. اللهم لا تسلط عليهم عدواً من غيرهم...» وآخر القصة معروفة^(٢٢).

ولقد عبرت الدعوة الإسلامية فيما عبرت عنه عن تشابك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ووصولها إلى حالة تناقض مع الواقع السياسي الذي يعكس تشتتاً وتفتتاً، وفي مواجهة سيطرة القوى القديمة (فارس والروم) في فترة أخذت فيه القوة العربية تتحرك وتعبّر عن فعاليتها.

لقد أخذت العلاقات التجارية بين مختلف مناطق الجزيرة والمناطق

الواقعة شامها تتزايد وتعمل على شدها بعضها إلى بعض ، دافعة باتجاه الخطو نحو خطوة سياسية أكبر . وجاءت الدعوة الإسلامية كانعكاس ، ولكنها بالمقابل دفعت بهذه العلاقات ، بأواصر الوحدة دفعات هائلة للأمام ، وطبعت تاريخ المنطقة بطابعها وبشكل لا عودة عنه .

ولذلك ، لم تكن مصادفة ، أن يأتي مازن بن غضوبة إلى الرسول الأعظم ، ولم تكن تلبية أهل عُمان للدعوة الإسلامية طوعاً ، واحتضانهم لموقف النبي إليهم وهو عمرو بن العاص ، إلى أن أعادوه مكرماً إلى الخليفة الأول ، لم تكن تلك الأحداث لتعبر عن استثناء أو تبدو في تعارض في مسار عُمان وتاريخها وارتباطها ، وإنما كانت أحداثاً تعبر فعلياً عن جوهر هذا المسار ، وعن جوهر العلاقات بين مختلف أنحاء الجزيرة .

٤ - ترابطت في عُمان المسألة الدينية بالمسألة الوطنية حينما قرر العُمانيون أنهم بعد أن كرموا بهذا الدين الجديد ، لم تعند هناك من إمكانية للتعايش وبشكل غير طبيعي مع بقايا القوة الفارسية في عُمان . ويروي لنا المؤرخ العُماني أبو سليمان بن محمد بن عامر بن راشد المعولي القصة على النحو التالي . فبعد أن أسلم أباء الجلندي بن المستكبر وهم المسكون بزمَام الأمور في عُمان ، بعث جيفر بن الجلندي رسله إلى مختلف مناطق عُمان ، فما ورد رسوله على أحد إلا وأسلم ، وأجاب دعوته إلا الفرس الذين كانوا بعُمان . ولما أبوا الإسلام اجتمعت الأزدي إلى جيفر ، وقالوا ، لا تجاورنا العجم بعد هذا اليوم ، وأجمعوا على إخراج عامل الفرس ، مسكان ومن معه من الفرس . «(فدعا جيفر بالأساورة والرازية فقال لهم : أنه قد بعث منا نبي في العرب (التشديد من عندي) ، اختاروا بين إحدى الحالتين ، إما أن تسلموا وتدخلوا فيما دخلنا فيه ، وإما أن تخرجوا عنا بأنفسكم» (٣٣) .

وتواصل القصة إلى نهايتها ، حيث يصر الفرس على موقفهم ، فيقاتلهم

العُمانيون ، ويخرجونهم . وتوضح المشاعر العُمانية تجاه الدعوة الإسلامية ، ورؤيتهم لعلاقتهم بالنبي الذي «بعث منا في العرب» .

٥ - شارك العُمانيون في الفتوحات الإسلامية وفي حروب الردة وبرز منهم قادة في التاريخ الإسلامي من بينهم المهلب بن أبي صفرة . كما لعبوا دوراً في الفتوحات التي توجهت إلى داخلية فارس ، ويعينهم في ذلك معرفة بتلك المناطق إنطلاقاً من الجوار القائم ، ومن هجرات عُمانية عديدة انتقلت إلى البر الفارسي ، بدايتها الحقيقية أو الأسطورية كانت مع انتقال سليمة بن مالك بن فهم في القرون الميلادية الأولى إلى كرمان بالبر الفارسي ، هرباً من انتقام أخوته لقتله والده مالك بن فهم الأزدي خطأ ، في قصة متداولة .

٦ - بالرغم من الدور المهم الذي لعبه العُمانيون في الأيام الأولى للدولة الإسلامية ، إلا أن موقع بلادهم ومعرفتهم القوية بالبحر ، جعلتهم حاة حدود الدولة الإسلامية الجنوبية ، والقائمين بأمر الملاحة والتجارة عبر أطراف المحيط الهندي الواسع من الصين إلى أفريقيا . ومنذ أيام الرسول الأولى وضعت أسس معينة للعلاقة مع عُمان . فلم تتم تنحية آل الجلندي «فقد احتفظوا بمراكزهم ، وظلوا يمارسون سلطات واسعة في عُمان ، وإن كانوا يخضعون إلى التوجه السياسي العام للدولة ، أي أنه قائم على إتاحة الفرصة لآل الجلندي في تنفيذ سياستهم في الإدارة والتجارة ، على أن لا تكون معارضة لمصالح الإسلام والسياسة العامة للدولة» (٣٤) . وكانت هذه العلاقة التي استمرت على مدى القرون هي نتيجة تفاعل ظروف عديدة ، مع المصلحة العامة للمنطقة التي كانت تدفع للتوحد وسيطرة المركز ، والصراعات بين المركز والأطراف ، ومميزات بعض الأطراف الجغرافية والبشرية ضمن وحدة العوامل جميعها .

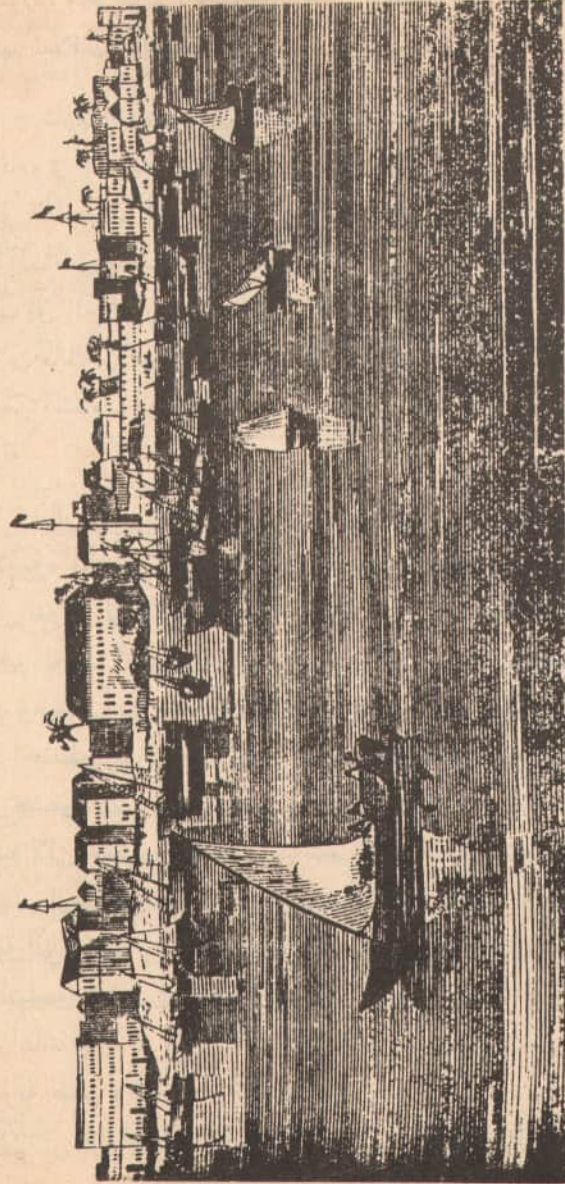
غير أن العلاقة بين المركز والأطراف لم تكن علاقات الأجنبي بـ

البلد ، ولا كان المركز يساوى دائماً بالاستنزاف ، ولم تكن الأطراف تعني دوماً مناطق تسحب منها الثروات . فالأطراف تستفيد من المركز إقتصادياً وسياسياً عبر ضمانته للأمن ولخطوط التجارة وللحلاقات والقدرات التي يفرضها تجاه القوى الأجنبية ، وتوفر الأطراف الموانئ ومناطق التماس مع الشعوب الأخرى .

وكان دور عُمان البحري واضحاً ، ونستعيد بعض مقتطفات وردت سابقاً ، فأبو الفدا يصفها بأنها « مدينة جلييلة بها مرسى السفن من السند والهند والصين والزنج » والقلقشندي يقول « مدينة عُمان فرضة بلاد البحرين وإليها تنتهي مراكب الهند والزنج » . والحيمري يقول في الروض المعطار عن عُمان بأنها « مدينة معروفة ... هي فرضة البحر ... وهي فرضة الصين وبها مرقا الصين » . وهكذا . أما المسعودي فيقول « وجدت نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج والقلزم والحبشة من ... العُمانيين » (٢٥) .

ولقد سالت دماء كثيرة عبر التاريخ الطويل من الصراعات بين المركز والأطراف ، ودارت حروب مريرة ، غير أنه حتى مجيء القوى الأوروبية ، كانت هذه الصراعات تتم ضمن الوحدة . وحتى مجيء الأوروبيين لم يذكر لنا التاريخ أن عُمان قد وقفت مع قوى أجنبية في مواجهة المركز ، وهذا ما تجب ملاحظته في هذا السياق .

٧ - لقد برز المذهب الإباضي نتيجة الخلافات التي حدثت في أواخر عهد الخلفاء الراشدين ، وهو جدول من جداول النهر الإسلامي الكبير . ولقد انعكست في الخلافات التي دارت بين مختلف المذاهب وطبيعة التناقضات على أرض الواقع . ووجد العُمانيون في المذهب الإباضي المذهب الإسلامي الأكثر تعبيراً عن واقعهم ومعاشهم وحياتهم وبلادهم ضمن الدولة الإسلامية . غير أن الصراع ظل ضمن الوحدة مرة أخرى . بمعنى ، أن



صورة لزنجبار
في منتصف القرن التاسع عشر

الخلاف ظل بين القرب والبعد عن الإسلام ومن سيرة النبي الأعظم . وظل الإباضيون يعتقدون انهم يعبرون عن الدين الإسلامي الحق ، ونظروا الى السلطات المركزية ، أو السلطات التي تقوم في عُمان على مبدأ الملك ، انهم جبابرة وطفاء ، ولكن ليسوا في ما يخص المركز ، قوة أجنبية أو خارجية .

وحينما يتحدث صاحب الشعاع الشائع باللمعان ، واصفاً حلات عبد الملك بن مروان على عُمان ، في مطولته الشعرية التي تؤرخ لسير الأئمة العُمانيين ويقول شعراً ويتلوه بالتفسير على النحو التالي :

« إذا باغى الشأم سطا بكف إلى أجناده عدم الرقابا
الباغى المؤلف البغي ، والحالف للإنصاف ، والهدى بالاعتداء ...
وهذا البيت يشير الى حرب عبد الملك بن مروان وسعيد وسليمان
الجلنديين » (٢٦) .

نظر العُمانيون إلى السلطات الوراثية على هذا الأساس ، وحتى في حروبهم الداخلية والتي اتبعت مجدداً بعد بروز الإمام ناصر بن مرشد وإلى عقود القرن العشرين .

وهم في هذا يختلفون في نظرتهم تجاه البرتغاليين أو الإنجليز الذين أطلقوا عليهم جمعاً إسم النصارى ، وهو اسم تتحد فيه معاني الاختلاف القومي والديني في الجزيرة العربية وجنوبها على وجه الخصوص لخلو المنطقة من نصارى العرب . وحتى مسلمو فارس ، كانوا يسمونهم العجم ، أما في صراعاتهم مع القوى العربية فكانت تندرج على حداثها ، وتواترها ضمن طبيعة صراعات أخرى بمدى آخر وأفق مختلف .

٨ - ظلت عُمان وبعد تبنيتها للمذهب الإباضي تقوم بدورها الاقتصادي والسياسي والعسكري في هذه المنطقة طيلة القرون بغض النظر عما يستلم زمام الحكم ، في عواصم المركز ، بل انها أخذت على عاتقها مد النفوذ العربي والإسلامي عبر سواحل المحيط الهندي .

وكانت تقوم بدورها البحري متحدة في ذلك مع مجموعة الإمارات العربية الواقعة على الساحل الفارسي . وكانت بعض هذه الإمارات تخضع للتوجيه الفارسي بحكم الوقوع على الساحل الشرقي للخليج . غير أن الهيمنة الفعلية للقوى البحرية كانت بيد العرب ، وظلت فارس قوة برية تستعين بالعرب إذا ما أرادت التحرك خارج أراضيها وعبر البحر .

وهكذا كانت إمارة هرمز ، عبارة عن مدينة تحكمها سلالة عربية ، وتأخذ في الاعتبار قربها من الدول الفارسية ، إلا انها تعتمد أساساً على القوى العربية .

٩ - كان العُمانيون هم المتضررون الأول من مجيء الأوروبيين بحكم قيامهم بدور التجار في هذه المنطقة وبحكم مسؤوليتهم العسكرية والسياسية . ولقد جرت محاولات عديدة عبر القرون لتنظيم الدفاع المشترك بين القوى المؤهلة للوقوف بوجه الأوروبيين والدولة العثمانية ، والدولة الصفوية ومصر تحت الدولة المملوكية والعُمانيون ، ولكن ظل ميزان القوى يميل إلى صالح الأوروبيين مما سهل لهم السيطرة على المنطقة ، وتفتيت محاولات التوحيد أو الوقوف الإسلامي المشترك ضد القوى الغازية .

١٠ - ظلت القوانين الموضوعية في الترابط والتأثير والتفاعل تحكم طبيعة العلاقات بين مختلف مناطق الجزيرة وحتى بين مختلف المناطق العربية ، رغم الوجود الأجنبي ، وظلت عُمان تحافظ على دورها المميز في المحيط الهندي . وتنبعث بعد قرن من الانهزام أمام البرتغاليين ، في تحرك عارم يستهدف تحرير عُمان منهم ، وتنجح في ذلك وفي تحرير جزء كبير من السواحل الإفريقية والهندية ، وتوضع الأسس لقيام امبراطورية (إفريقية - آسيوية) تمد الثقافة العربية والإسلامية مجدداً إلى تلك الأصقاع .

وتتعاون الدولة العُمانية والدولة العثمانية في مواجهة الأوروبيين ، بل

أن السلطان العثماني يخصص راتباً للإمام أحمد بن سعيد ومن يخلفه لقاء حمايتهم لحدود الدولة الجنوبية، وذلك بعد قيام الأخير في منتصف القرن السابع عشر بكسر سلسلة أقامها الفرس لحصار ميناء البصرة، وقد قامت السفينة «الرحاني» بذلك.

وتنحى الأمور منحى آخر ب بروز القوى المركزية العربية الجديدة، الدولة الوهابية في البداية، ومحمد علي القادم من مصر، حيث تبدأ بريطانيا في التدخل لمنع عملية الصراع المستمرة عبر القرون أو تجديدها ما أمكن، وذلك بمحاولة الوقوف باستشراس من أجل عدم قيام دولة موحدة، أي كان شكل وحدتها ومداه، وأياً كانت العلاقات بين المركز والأطراف في تلك الوحدة.

١١ - تراوح مقدار التدخل البريطاني زيادة أو نقصاناً، وتفاوتت طبيعته بين العنف الحاد والأساليب السياسية التي تستبطن العنف، إزاء كل ازدياد نحو التوحد والترايط، مع تزايد المصالح البريطانية في الداخل وبالعكس.

فكلما تقدمت قوات المركز (السعوديون أو المصريون مثلاً) قدمت بريطانيا مساعداتها الشحيحة لسلطان عُمان بحيث يقاوم الاتجاه، دون أن يقوى إلى درجة تمكنه من تشكيل قوة مركزية تتقدم في الاتجاه المعاكس أو إلى درجة تحرره من ضرورة اللجوء إلى بريطانيا أو الإعتماد عليها.

وحينما بدأت بواذر النفط تبرز في أفق داخلية عمان، وحينما التفتت قوى الإمامة حينها إلى مصر والسعودية والجامعة العربية، ألفت بريطانيا بكل ثقلها واجتاحت جيوشها داخلية عُمان.

ولم تكن مواجهة بريطانيا في بداية القرن الماضي للقوة البحرية الناشئة للقواسم ببعيدة كثيراً عن هذه الاتجاهات. لقد أتت القوة البحرية القاسمية مباشرة بعد البحرية العُمانية، ولو قدر لتلك القوتين أن تتحداً (سلباً أو

حرباً) لكان لذلك تأثير كبير، وكان وعي بريطانيا حول هذا الاحتمال هو الذي دعاها إلى ضرب القوتين والإنحياز لإحداها ضد الأخرى، لأن الناتج الإجمالي سيكون إضعاف القوتين لحساب القوة الخارجية إذا تم ذلك بمساعدتها.

١٢ - كانت عُمان موحدة مع احتواء هذه الوحدة على عوامل صراع طبيعية تنبع من طبيعة الأرض والبشر الذين عليها. كانت متحدة داخلياً وساحلاً، ومتحدة دوراً وتاريخياً وشعباً ببقية مناطق الجزيرة، وعواصم المركز. وبدأت عوامل التفجير للصراعات الكامنة مع دخول القوى الأجنبية وتحديداً بريطانيا، وجعلها تحتل حيزاً يفوق حيزها التاريخي المعتاد، وبدلاً من قيام هذه العوامل كما في السابق بتحقيق سيطرة طرف على طرف، وتحقيق وحدة جديدة أمتن وأكثر شباباً، أصبحت بريطانيا تشجع الصراع وتؤيد التفطيت. وهكذا حققت حملة ١٨٢٠ انفصال الساحل، ثم فجرت عوامل الصراع بين سواحل عُمان الواقعة على خليج عُمان والبحر العربي والتي جعلت حيناً تحت تسمية العاصمة مسقط بمواجهة داخليتها. وبعد ذلك انعكس دور عُمان تجاه المركز بعد أن تلاشى وضعف نتيجة إرتباطه بقوة أجنبية.

ويتحدث الكاتب الأميركي بيترسون نفسه عن الحالة التي أوصلت بريطانيا عُمان إليها في بداية الخمسينات على النحو التالي:

«ومؤخراً فقط بدأت عُمان تخرج من الشرقة التي نسجها حولها المعلمون المخلصون لها من الأوروبيين، والتي كانت حالة مقبولة إلى حد كبير من حاكمها، بل كان لا يمكن رفضها أخذاً في الاعتبار الظروف التاريخية. وإحدى

نتائج هذه السياسة أنه في منتصف القرن كان هناك فهم [في عُمان] أن كل الدول الغير بريطانية، أوروبية كانت أو آسيوية أو عربية، كانت إما عدوة أو أنها ذات أهمية محدودة لمسقط^(٢٧).

وشكلت هذه القناعة أهم ما أوصلته بريطانيا إلى من توالى على السلطة في مسقط، مستخدمة في ذلك كافة أشكال الإقناع وعلى رأسها القوة المسلحة، وليست هي الملمومة بالطبع بمعنى من المعاني، فهي تتصرف إنطلاقاً من مصالحها الثابتة والمتصادمة أصلاً، والقائمة على أسس التعادي مع قيام دولة عربية قوية في هذه المنطقة. وهذه إحدى نتائج السياسات الأوروبية الاستعمارية على مدى العصور.

١٣ - شهدت المنطقة احتكاكاً بين العرب وبين مختلف الأقوام القائمة على سواحل المحيط، وتمكن العرب من بناء علاقات وطيدة بين مختلف الأطراف، وكانت آخر ما تحتاجه تلك البقعة هو وجود قوة أجنبية لتحمي كل قوة محلية من الأخرى. ومنذ أن قدم الأوروبيون، واخترقوا المحيط الهندي حتى عملوا على إيقاظ كوامن الصراعات ونفخوا فيها، ثم جعلوا من أنفسهم عناصر تحكيم بين العرب والهنود، وبين العُمانيين والأفريقيين وبين المسلمين والأحباش المسيحيين.

وحينما كان هؤلاء الأقوام يقدمون للعيش في الأراضي العُمانية أو ضمن الأراضي التابعة، كانوا يتناغمون مع التسامح الإسلامي ومع الحضارة العربية الإسلامية التي تتأزج مع الأرض المحلية، دوناً حساسيات أو نظرات متعصبة.

وهكذا عاش الأفارقة والعرب والهنود دوناً حاجة إلى وسطاء ضمن أعراف وقوانين تحكم العلاقات التي لا بد وأن تشملها صراعات بحكم وحدة

المصالح وتناقضاتها، إلا أنهم لم يكونوا أبداً بحاجة إلى من يكون وسيطاً بينهم. وكان لا بد للأوروبيين من تهديم كل ذلك إذا أرادوا لوساطتهم قبولاً.

يمكننا على ضوء ما سبق أن نصل إلى بعض الاستنتاجات. ولسنا بصدد إثبات أن عُمان كانت قريبة من المركز لتتطابق هي وإياه، علماً بأن هذا المركز، كان مركزاً متحركاً بين المناطق العربية الأساسية. ولسنا بصدد نفى الطبيعة الوعرة لجمال عُمان، أو احاطتها بالصحارى والبحار. وإنما وددنا تأكيد أن العرب الساكنين في عُمان، أو الذين هاجروا إليها تبعاً، أو من قطن منهم أماكن أخرى، قد أقاموا نوعاً من التضامن والوحدة ينطلق من واقع هذه المنطقة، ويأخذ في الاعتبار تعددية مناطقها واختلافها. وحينما نقول أنهم أقاموا ذلك عن سابق وعي وتخطيط، وبالمعاني الحديثة للكلمة، فليس هناك في حركة التاريخ السابقة تخطيط أو وعي حسب مفاهيمنا في هذا القرن أو حسب المفاهيم التي برزت في أوروبا بشكل عام. والوعي في جوانب معينة لاحق على الحركة بأية حال.

كان للسابقين تخطيطهم ووعيهم وكانت لهم تجربتهم، وتبرز من خلال الصراعات والحروب الأشكال الأكثر تناسباً، والأكثر امتلاكاً للقدرة للتعبير عن الواقع والاستمرار.

وتعتبر الإباضية وبروز حكم الإمامة ظواهر تعددية ضمن الوحدة الأكبر وهي الإسلام. وهذا ما تراه الإباضية، فهي إنما تسعى للإلتصاق بالدين وحقيقته التي طبقت أيام الرسول ﷺ. وإذا كانت الإباضية قد عنت لدى بعض الأجانب وحسباً فهموها نوعاً من التعصب، فلن تكن الدولة المركزية هي نقطة التوجه الأولى لذلك «التعصب». ولا ريب أن حماس الإباضيين للحفاظ على الإسلام والعروبة يفوق بكثير حماسهم تجاه أمور أخرى. ويتناسب ما قام به العُمانيون لنشر الإسلام والعروبة في هذه

المنطقة الشاسعة من العالم تماماً، وإيمانهم بالإسلام وإخلاصهم للعروبة يصب في مجراها العام.

وثالث الأمور أننا حينما نتحدث عن الارتباط مع الدولة المركزية، فإننا نتحدث عن ارتباط قائم على أسس موضوعية شاملة بعيداً عن الإقتصاد على شكل الارتباط السياسي، وبغض النظر عن طابع الحكم في عُمان أو مناطق المركز. ويتمثل ذلك في دور وجد أسسه قبل الإسلام وتبلور في الدعوة الإسلامية، وتقوى عبرها ونما وسطها وترعرع، وظل قائماً حتى مجيء القوى الأجنبية التي تدخلت بالعنف لإيقاف مثل هذه القوانين الموضوعية ولتجميدها. وسيظل هذا الإيقاف والتجميد قائماً باختلال موازين القوى لصالح القوى الأجنبية ولكن العكس صحيح أيضاً، وتجربة الدولة اليعربية مثال بارز على ذلك.

ورابع الأمور، وكما قلنا سابقاً، فإننا لا ننفي وجود عوامل جغرافية وبشرية قد تضع أساساً للصراع مع المركز غير إننا نختلف حول أفق هذا الصراع وأمدّه واتجاهه. ومثلما يحتوي جسم الإنسان على عوامل مرض وعوامل صحة وعلى عوامل موات وعوامل حياة، تبقى هناك حدود لعوامل السلب. وكذلك الحال بالنسبة لوضعية الأطراف تجاه المركز.

فظواهر الانفصالية والصراع ضد المركز على حدتها وشدها لم تنقلب إلى تحالف مع عدو المركز الأجنبي إلا حينما حاقت بالعرب الهزائم، وأضعف المركز. وبالتالي إذا كان هناك اعتراف بوجود مسائل موضوعية للصراع ضمن كل بلد عربي، فإن هذه العوامل لا تصل إلى حالة «مرضية» أو إلى «ورم» أو «تضخم» إلا عبر التحالف مع الأجنبي، وحين وجود حالة عميقة من الإنحطاط بالمركز.

وحينما يأتي المثقفون والبحاث الأجانب، فرغماً عن النيات الحسنة للكثير منهم، وبرغم من أن بعضهم له إهتمامات ثقافية بحتة،

فإن الأرضية التي يقفون عليها هي أرضية أوروبية التفكير، وأوروبية المقياس، علماً بأن أوروبا هي أيضاً أرض الاستعمار تجاه بلادنا العربية، كانت ولا تزال.

ويستثنى بالطبع من هؤلاء في بعض الأحيان الأبحاث التي يقوم بها بحاث مكلّفون ذوي صفة رسمية أو شبه رسمية أو يكونون على إرتباطات واضحة مع المؤسسات في تلك الدول، كما الحال في موسوعة لوريير البالغة ١٤ مجلداً وتدور حول الخليج، وهي عبارة عن موسوعة كتبت بالارتباط الواضح مع الجهات العسكرية البريطانية.

وما يؤسف له أن بعض المثقفين والطلاب العرب الذين يدرسون في البلاد الأجنبية، لا يعطون إهتماماً كافياً آراء مثل هذه الآراء والنظرات التي يطرحها بعض هؤلاء المفكرين الأجانب، وهذا ما يجب أن يكون هاجساً أساسياً لهم وليتحصنوا آراء أفكار خاطئة ذات إنعكاسات واضحة المعالم على بلادهم.

ويجب علينا ضمن هذه المواجهة أن نحاول إعادة إحياء تراثنا وكتابات المؤرخين العرب، ومحاولة قراءتها واستيعابها، على الأرضية التي تم التآليف عليها، ولنمتلك الرؤية والمنهج الذي امتلكوهما، ونلتصق بواقعنا وبمصلحنا القومية، ونمتلك الإحساس اللازم آراء القراءات التي يكتبها كتاب أجنبي.

يتوجب علينا الآن العودة لرؤية مسألة مواجهة إمارة عزان بن قيس للعلاقات مع الدول العربية والأجنبية ضمن الفترة القصيرة التي كان فيها على رأس السلطة بعُمان، ووسط المصاعب الداخلية الجمّة التي كان يواجهها.

حددت إتفاقيات ١٨٢٠ والتي وقعها الإنجليز مع مشايخ ساحل عُمان، وإتفاقات الهدنة التي وقعت مع مشايخ الخليج فترة ما يُسمى «بالسلام

البريطاني « الرديء والذي سيستمر قائماً بقوة السلاح - كما بدأ - لمدة قرن ونصف من الزمن، وحددت العلاقات بين حكام عُمان وإمارات الساحل ومن بعدها قطر والبحرين . وإذا كانت عوامل الشد والفعل قائمة باستمرار في عملها ولكنها حُجِمت ووضع لها سقف ، ولم يعد مسموحاً أن يصل الفعل إلى مستواه السابق ، أي إلى حد الإمتداد السياسي ، والضم التوحيدي .

والى الشمال قليلاً كانت الدولة السعودية الثانية قد استعادت شيئاً من حيويتها ، وأخذت تمد نشاطها إلى نواحي الجزيرة العربية المترامية وسط قلق بريطاني ، كان قد خفّ إزاء تمكن أوروبا من إرغام محمد علي على التراجع إلى مصر ، وإزاء الخفوت وحالة الضعف التي كانت تحتاج جسم الدولة العثمانية .

والى الشرق قليلاً ، كانت فارس تتخللها التأثيرات البريطانية قليلاً فقليلاً ، وتتنصب بينها وبين عُمان مسألة الممتلكات العُمانية على السواحل الفارسية الجنوبية .

وتبقى بريطانيا القوة الأجنبية الأكثر تأثيراً في المجال المحيط بعُمان ، وبالذات في المياه الجنوبية . وهي إلى جانب ذلك تمتلك التأثير الأوسع في مجريات الأمور في عُمان ، أو على الأقل في مجريات الأمور في سواحل السلطنة ومُدنها القائمة هناك . ويقف الأسطول البريطاني ، والإتفاقيات المعقودة ، والنفوذ الغير منظور كضوابط للسياسات الإنجليزية .

وتؤرخ العلاقات العُمانية عادة بمعاهدة ١٧٩٨ ، ولكن إيان سكيت يتحدث عن معاهدة عقدها فيليب وايلد كممثل لشركة الهند الشرقية مع أهالي صحار وهي إتفاقية ذات طابع تجاري ، وذلك بناء على دعوة موجهة إليه من ناصر بن مرشد^(٢٨) . وحتى إذا ما صحَّ عقد مثل هذه الإتفاقية تاريخياً ، فهي في الحقيقة تشكل حدثاً منعزلاً ، ولم يشكل بداية لعلاقة معينة كما هو الحال بالنسبة للإتفاقية التي عقدت مع سلطان بن أحمد وذلك

في محاولة من قبل البريطانيين لتطويق توجهات نابوليون حينئذ . دُعِمت الإتفاقية السابقة بإتفاقية شبيهة عُقدت بعد ذلك ومهدت السبيل لوضع الأسس للتمثيل البريطاني الأول في عُمان . ثم وجهت بريطانيا انتباهها نحو تجارة الرقيق ، وهي مسألة متميزة ، وتظهر إلى أي مدى يطبق الأوروبيون مسألة « كلمة الحق التي يُراد بها الباطل » على أكمل وجه .

فمنذ قديم الزمن كتب صاحب مؤلف الطواف حول البحر الازتيري ، واصفاً العرب بأنهم « يألفون البلاد ويتزاجون مع أهلها ، ويعرفون الساحل واللغة » ، وذلك في مجال حديثه عن التواجد العربي على السواحل الأفريقية الشرقية ، وكان ذلك في القرن الأول للميلاد . وكانت هذه إشارة مبكرة لطابع العلاقة التي ميزت العرب في احتكاكهم بتلك البلاد وسكانها عن عديد من القوى وبالذات مقارنة مع الأوروبيين . ولقد أقام العرب علاقات وثيقة مع البر الأفريقي وشهد البحر الأحمر وبالذات قسمه الجنوبي حين إقتراب ساحليه ، موجات متتالية من الهجرة لم تنقطع عبر القرون . ومن بقايا تأثيرات هذه الهجرات ما يقال أن سبب إطلاق اسم الحبشة والأحباش على إثيوبيا الحالية ، إنما كان لمجيء قبيلة حبش العربية في القرون الميلادية . وإلى قبيلة الأجاعر العربية تنسب لغة الأحباش الأصلية المعروفة باسم الجعز أو لسان جعيز . وعبر مجيء العرب وإختلاطهم بالسكان وضعت أسس جديدة لنقلة أكبر وأشمل في العلاقات وفي تشابكها وبلوغها مستوى عالياً .

ومنذ ذلك الوقت ، ومع المبادئ التي وضعها الإسلام والتي لا تعطي للعرب أي تفوق معين على بقية المسلمين ، شارك العديد من الأفارقة كأفراد أو كجماعات في الحضارة الإسلامية ووصلوا إلى أعلى المراتب العسكرية والسياسية ، في كل الممالك والسلطات العربية القديمة منها والمحدثة ، وشاركوا في مجالات الفكر والثقافة .

فلقد استطاع كافور الإخشيدي في مصر مثلاً أن يستولي على السلطة ، وفي الأزهر تم تخصيص رواق خاص عُرف برواق الجبرتين ، وكان يدرس فيه القادمون من بعض مناطق شرق أفريقيا . وإلى أحد هؤلاء ينتسب عبدالرحمن الجبرقي^(٢٩) . ويشار هنا أيضاً إلى دولة بني نجاح في اليمن والتي ينتمي حكامها إلى أصول أفريقية .

وحينما قدم البرتغاليون إلى شرق أفريقيا ، وصف أحد مرافقي فاسكو داجاما الموانئ التي وجدوها في شرق أفريقيا ، حيث رأوا « مرافئ تطن كخلايا النحل ومدناً ساحلية عامرة لا تقل نشاطاً عن مدنها في البرتغال .. ولقوا رجالاً عبروا المحيط الهندي عدة مرات ... ويعرفون دقائق مرافئهم وسجلوا هذه الدقائق في خرائط متقنة لا تقل فائدة عما كانوا يعملونه هم من خرائط في أوروبا » .

وحاول الأوروبيون منذ مجيئهم دق الإسفين في العلاقة القائمة بين العرب والأفارقة ، فبدأوا في محاولة اجتذاب أمبراطور الحبشة على أساس ديني . ولقد إنجذب الأمبراطور إليهم بآدى ذي بدء ، ولكن مع محاولات البرتغاليين فرض المذهب الكاثوليكي ، أرسل الأمبراطور فاسيلادس رسالة إلى إمام اليمن « يعرض فيها رغبته في تفهم الدين الإسلامي لعل الله يهديه إلى إعتناقه »^(٣٠) ، ويطلب الامبراطور المساعدة من الإمام لمواجهة البرتغاليين .

وتكاتف العُثمانيون والمصريون والعثمانيون وأبناء البلاد الإفريقية على مدى ثلاثة قرون التي تلت ، في شن ثورات متتالية وشن حروب ، بهدف التخلص من البرتغاليين والأوروبيين ، ولقد نجحوا في مرات كثيرة وهزموا في مرات أخرى ، ولكن شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تزايد الهيمنة الأوروبية واستطاعتها إخضاع العرب والأفارقة . ولقد شهدت إفريقيا وبالذات سواحلها الغربية وداخليتها عمليات

وحشية قام بها الأوروبيون من أجل إسترقاق مئات الألوف من أبناء القارة الأفريقية وشحنهم في ظروف سيئة نحو القارة الأميركية . وبعد فترة من الزمن ومع إزدياد الرغبة الأوروبية في التوغل داخل القارة وإستغلالها بشكل مباشر أخذت المصالح الأوروبية تميل إلى استبقاء الأفارقة في مناطقهم بدلاً من ترحيلهم إلى مختلف مناطق العالم الجديد . وبينما شهدت مناطق غرب القارة نشاطاً مبكراً في تجارة الرقيق باتجاه العالم الجديد ، فإن شرق القارة لم يشهد قيام الأوروبيين بدور مماثل إلا بعد فترة من الزمن .

وعلى حين غرة ، أبرز الأوروبيون أنفسهم كمُدافعين عن حرية الإنسان ، وإهتمامهم بحالة المعذبين من الأفارقة ، وبدأوا في مواجهة حركة الرقيق التي كانت سائدة ولقرون طويلة في شرق أفريقيا ويقوم بها العرب والأفارقة على السواء تجاه القبائل الإفريقية الوثنية أو الضعيفة . ولا ريب إن استرقاق الإنسان لبني الإنسان كانت من أبغض العمليات التي شهدتها التاريخ البشري كائناً من كان القائم بها ، وهي عملية قاسية ، ودموية تتصادم مع أبسط المقومات الإنسانية ، ومع ذلك فقد شهدت عمليات الإسترقاق التي كانت تحدث في هذه المنطقة فوارق كبيرة عما كان يقوم به الأوروبيون ، ولم يكن هناك من داعٍ لذكرها لولا الحرب الصليبية التي يشنها الأوروبيون ولا زالوا على العرب ودورهم في هذه المنطقة .

كانت حركة الإسترقاق التي شهدتها أفريقيا الشرقية التي تحيط بالجوانب الغربية من المحيط الهندي ، حركة موجهة من الكل ضد الكل ، بمعنى أن الإسترقاق لم يكن دوماً موجهاً ضد فئة معينة ومقتصرة على مواطني منطقة دون أخرى . كانت بعض القبائل العربية في جنوب الجزيرة العربية تمارس الإسترقاق ضد أي كان ، وإلى ما قبل عقود قليلة ، ولم يفلت من ذلك حتى بعض أفراد من الأسر الحاكمة . وبالمقابل كان الرقيق يحصل

على حريته في كثير من الأحيان ، ويتبوأ مناصب في السلطة تتضمن حكم من كانوا في مصاف سادته إلى قبل فترة تحرره ، وكثيراً من ولاية البوسعيد في عُمان كانوا رقيقاً ، فأشهر قادة السلطان فيصل بن تركي كان سليمان بن سويم ، ، وهو من الرقيق في الأصل ، الذي ولّاه على العديد من مناطقه ومن بينها ظفار الحالية ، وذلك في بداية القرن .

وشهدت العلاقات الإجتماعية بدورها تداخلاً ، فلم يكن الزواج من نساء من أصل زنجي أو ممن كن إماء ليثير أي إشكال بوجه الأبناء المستقبليين . وبين الثاني وثلاثين إبناً وبناتاً الذين أنجبهم أشهر سلاطين عُمان في العصر الحديث ، وهو سعيد بن سلطان لم يكن أي منهم من إمرأته العربية الوحيدة ، ومع ذلك فلقد تولّوا السلطة في زنجبار وعُمان .

وللإقتراب من الواقعية ، فلا ريب أنه ضمن التطور الموضوعي السائد كانت داخلية أفريقية هي الأكثر تعرضاً للإسترقاق ، وبعكس ذلك كان البر العربي . ولكن لم تكن هناك فواصل قاطعة وحاسمة في السلم الإجتماعي . فسائر الممالك المزدهرة التي أقيمت على طول الساحل كانت ممالك مشتركة ، وكان الإنتقال من حالة الإسترقاق لحركة التحرر عملية عادية ، وتحدث في مختلف أنحاء الحياة اليومية ، وعبر التاريخ . وكان تبني الإسلام من بعض القبائل الأفريقية يؤدي إلى تحرّم إسترقاقها نهائياً .

ولم يمنع ذلك من الحياة المأساوية التي عاشها العبيد ، وهذا لا يمنع الفروقات الإجتماعية التي تسحب نفسها للوقت الحاضر ، ولكن يبقى ذلك كله مختلفاً عن نظام الإسترقاق الذي ساد الغرب منذ عهود اليونان وحتى العصر الحاضر وإلى يومنا هذا في أميركا وأوروبا ، وذلك بمقارنة وضعية ذوي الأصول الزنجية في تلك الدول ووضعتهم في البلاد العربية . وهذا ما نود أن نوكد عليه هنا . فلقد بدأ الأوروبيون منذ منتصف القرن الماضي في محاولة الظهور بظهور حُماة الأفارقة من تجار العبيد العرب . وقد استهدفوا

الدولة البنية القيصريّة الأنكليسي
ورقة العتق



BRITISH GOVERNMENT
MANUMISSION CERTIFICATE

Be it known to all who may see this

that the bearer
aged about years has been manumitted and
no one has a right to interfere with his
liberty.

Dated this day of 19

Signature of Legation

British Representative

وبعد فإن حامل هذه الورقة

عمره تخميناً سنة قد صار حراً كساير الأحرار فلهذا

لا يكون لأحد عليه الاعتراض في حريته والسلام

خزر في بتاريخ شهر

سنة ١٣٢ مطابقاً في شهر سنة ١٩

أعضاء ورثة صيحت الدولة
البنية القيصريّة الأنكليسي

ورقة عتق ، كانت بريطانية تمنحها للعبيد
الذين يلوذون بالقنصليات البريطانية ،
ويقبضون على سارية العلم هناك ، وهي وسيلة
استخدمها البريطانيون لتنفيذ سياستهم في
المنطقة .

في حقيقة الأمر من ذلك إبقاء الأفارقة في مناطقهم كقوة عمل ، حين بدأ تغلغلهم في داخلية القارة . واستهدفوا أيضاً ضرب حركة التجارة العربية بين أرجاء المحيط الهندي والتي كانت تجارة الرقيق عصباً أساسياً لها . واستهدفوا ضرب العرب بالأفارقة والعكس ، لإضعافهم معاً ، وللبروز بمظهر الوسيط ذو النزعات الإنسانية .

ولا يجب أن يؤخذ ذلك كتعاطف مع تجار الرقيق ، وإنما للإشارة هنا إلى ما قامت به الحكومة المصرية مثلاً حينما أرادت القضاء على تجارة الرقيق الموجهة إلى جنوب السودان ، فقد بدأت في تمكين تجار العبيد من الحصول على مهن أخرى ، بدلاً من تحطيمهم كقوة إقتصادية ، فأوجدت لهم الموارد اللازمة ، وتم القضاء على التجارة بأقل الخسائر وبأقل ما يمكن من العنف .

بل أن البحارة الأوروبيين قد أخذوا يستغلون القوانين التي عرضتها الدول الإستعمارية تحت شعار محاربة الرقيق ، لتفتيش السفن العربية ونهب ما فيها تحت حجة مكافحة الرقيق . ولم يكونوا في بعض الأحيان يستمعون إلى الحقائق التي تظهر أن بعض العاملين على السفن من ذوي البشرة السوداء هم من العاملين الأحرار في السفينة .

وبرزت كذلك البعثات التبشيرية لتغتم مكاسباً بدورها ، عبر القيام بمواجهة الحركة الإسلامية الممتدة على مدى القرون ، وبشكل طبيعي وسلمي ، فكانت تقوم بتجميع الأطفال ، والعبيد المحررين ، وتعمل على تجميعهم وإدخالهم في الديانة المسيحية .

لقد تفاعلت هذه العوامل ، مع محاولة الغرب تهديم السلطات العربية القائمة في مناطق أفريقيا الشرقية ، وتدمير العلاقات التاريخية التي اكتنفت هذه السواحل من المحيط الهندي ، وأضيفت إليها المظالم التي كانت تبرز من بعض السلطات العربية في تلك المناطق ، والتي أخذ الأوروبيون

يركزون عليها كرمز لكل العرب . وأدت هذه المسائل جميعاً إلى إيجاد نزعة عميقة ودفينة ضد العرب والإسلام يزيد منها ويسمها الأوروبيون والبعثات التبشيرية في أفريقيا . ولا زالت آثارها ملموسة في مختلف الجنبات في هذه المناطق من أفريقيا

بدأت أولى المعاهدات البريطانية العُمانية الخاصة بتجارة الرقيق بمعاهدة ١٨٢٢ والتي يُطلق عليها معاهدة مورزي ، وقد استهدفت إيقاف تجارة العبيد القائمة بين الهند وأفريقيا في السفن العُمانية ، وذلك برسم خط عبر المحيط الهندي ، حيث حُظرت سفن تجارة الرقيق جنوب هذا الخط . وعُدلت هذه الإتفاقية عام ١٨٢٩ بحيث رُفع خط الحظر شللاً ، قاسماً المحيط الهندي شطرين عبر مستقيم يمتد من جزيرة سقطرى وحتى نقطة على ساحل مكران ، وبذلك أُغلقت جوارر وهي تابعة لعمان في وجه تجارة الرقيق . ووقع سعيد بن سلطان معاهدة أخرى عام ١٨٤٥ ، حيث وافق على مساعدة السلطات البريطانية في القبض على الرعايا الإنجليز الذين يتعاملون في هذه التجارة . وعاد بعد ذلك بأشهر ليوقع اتفاقية جديدة لمنع أي شكل من أشكال الإتجار بالرقيق بين ممتلكاته في أفريقيا وتلك التي بجزيرة العرب ، وأعطى شركة الهند الشرقية الحق في القبض على أي من السفن العُمانية التي لا تتمسك بالإتفاقية . وشكلت اتفاقية ١٨٧٤ الضربة القاضية ، حيث حُظرت استيراد العبيد لعمان نهائياً .

وتمثل هذه الإتفاقيات ، نغماً فظيعاً من أنماط التسلط الأوروبي عبر استغلال قضية عادلة كوسيلة لتحقيق النفوذ والظهور بمظهر الدافع عن المبادئ الإنسانية . ولا ريب أن أوروبا ، مثلها مثل كل المجتمعات الإنسانية ، لم تخل من أناس أخذوا تلك القضية على محمل الجد ، ودافعوا عنها وجعلوا منها قضيتهم النضالية ، ولكن الحديث لا يدور عن هؤلاء ولكن عن أجهزة الدولة البريطانية التي لم تعط هؤلاء أذناً صاغية ، ولم

تجعلهم ناطقين بسياسة الدولة، بل ووجهت كافة المؤسسات الحاكمة لكي تتجاوب والمطالب التي رفعها هؤلاء الإنسانىون، إلا بعد أن تطابقت وسياساتها الإستعمارية، بعد أن تجاوزت السياسات السابقة، وأضحى منع الرقيق يخدم الإمبراطورية بمثابة تجارة الرقيق الدموية في العقود التي سبقتها.

وكانت هذه الإتفاقيات البريطانية إنعكاساً للنفوذ البريطاني المتزايد، ومداخل جديدة لتحقيق المزيد منه. وعبر ذلك وجدت أرضية للقبول بتوصيات لجنة كوجلان التي شكلت لبحث النزاع الذي قام بين زنجبار وعمان، وانتهت إلى اتفاق كانينج الذي أعطى الصبغة الرسمية للإنقسام بين المنطقتين، وذلك عام ١٨٦١^(٣١).

شكلت كل تلك الجوانب الأسس التي قام عليها النفوذ البريطاني وكان على عزان بن قيس أن يواجهه أجلاً أو عاجلاً. وتداخلت تلك السيطرة والهيمنة بشكل مباشر وفي فترة سبقت الأحداث بوقت قصير، حينما تدخلت بريطانيا في النزاع الذي نشب بين أبناء سعيد بن سلطان وبالتحديد بين تركي وثويني، فأوت الأول في بومي حيث أضحى قريباً من دائرة النفوذ البريطاني الأولى في المنطقة، ورعت ترتيباً معيناً بين الأخوين. وسيكون تركي هذا على رأس القائمين في مواجهة عزان، وقد كانوا كثيراً بأية حال.

كانت بريطانيا مهيمنة في المياه المحيطة بعمان، وكانت ذات نفوذ ضارب في عمان يتزايد وينمو، وكان لها وكيل في مسقط يشير وينصح، وكان في إمكانه تقديم المساعدات المادية، وفي إمكانه استدعاء الأسطول. وكانت خطوط التجارة والموانئ التي يتاجر بينها العمانيون قد أضحت بغالبيتها تحت الهيمنة البريطانية. وكانت بريطانيا هي الضامنة لحياة وأموال التجار الهنود في مسقط ومطرح وصور وغيرها. ومن ذلك تنبع

أهمية الإعتراف البريطاني بأي حاكم جديد، فبدون ذلك الإعتراف ما كان هؤلاء أن يركنوا ويشعروا بالأمان وبالتالي يواصلون العمل والتجارة. والأسطول والجمارك والمدن الساحلية، كل تلك أمور باتت مفاتيح للسلطة في مسقط وهذا ما كان على عزان أن يأخذه في الإعتراف بجملة. وفي النهاية فإن بريطانيا هي ضامنة ورود رياللات زنجبار منذ أن أضحت الوسيط والجسر بين الطرفين.

كانت بريطانيا والغرب عموماً قد طوروا أساليب الهيمنة وفرض النفوذ، ولقد غودرت أساليب القمع الجلي والسيطرة المباشرة التي كانت مرتبطة بالبرتغاليين، رواد الهجوم الأوروبي، بل أدخلوا عليها تحسينات واستحدثوا طرائق، وجددوا أخرى، وحافظوا على الجوهر. وهذا كان همهم ولا يزال إلى يومنا هذا. وسيقضي عزان تجربته، وسيتلوه الإمام سالم بن راشد الخروصي، وستمر عقود قبل أن تفكك العلائق وتكشف الأساليب، وتنجلي الخيوط المشدودة الى الغرب. وكان لذلك ضرائب باهظة توجب دفعها.

بعدما استقرت الأوضاع لعزان بن قيس أرسل السعوديون يطالبونه بدفع الجزية، فرفض دفعها، فأرسل الحاكم السعودي يهدد بغزو عمان، فعاشت عمان في سنة ١٨٧٠ على أعصابها بانتظار تنفيذ هذا الغزو. وتمردت في الصيف بعض قبائل البدو بالربع الخالي، والغافرية، سكان رؤوس الجبال، والظاهرة وعمان الوسطى، مما أضطر الإمام وصالح بن علي إلى القيام بمجملات عسكرية لإخماد هذه الحركات التمردية. وكان الإمام يواجه في نفس الوقت خطراً آخرأ يتمثل في تمرد قبائل الهناوية سكان قطاع جعلان، بعد أن كانوا من أقوى أنصاره ومؤيديه «وقد كان في إمكان الإمام عزان، بلا شك التغلب على كل هذه المشاكل لولم يظهر خصم قوي جديد يتحدى بنفوذه بتأييد من بعض الجهات الأجنبية»، حسب ما يقول

لاندن^(٣٢) ، وهو تركي بن سعيد ، حيث أخذ يتحرك وسط تأييد بريطاني ودعم مالي من أخيه ماجد الخائف دوماً من قيام حكم قوي في عُمان يرنو بنظره إلى إعادة زنجبار . وصل تركي قادماً من الهند في منتصف ١٨٧٠ ، وحصل على أموال ضخمة من أخيه ماجد استخدمها للتأثير على القبائل . وحصل بعد وصوله إلى دبي على دعم غالبية شيوخ الساحل عدا دعم زايد بن خليفة وشيخ النعيم . وهكذا نجح في الحصول على تأييد دبي ورأس الخيمة وعجمان ، وحصل فيما بعد على تأييد شيوخ النعيم وبني قتب وبعض القبائل الغافرية وأهمها الدروع والجنبة والحبوس وآل وهيبة . وعبر تحركات تركي ، أخذ وهج نار التأييد البريطاني يلفح جسم الإمامة .

وقفت الحكومة البريطانية موقفاً يؤدي لأن تخسر عُمان ممتلكاتها الآسيوية ، وذلك في عهد عزان بن قيس ، وأن تصبح العلاقات فيما بين مناطق عُمان علاقات دولية بدلاً من استمرارها كعلاقات داخل الدولة نفسها ، وذلك كما فعلت مع زنجبار . وهكذا خسر عزان سيطرته على ميناء بندر عباس . وعُين والٍ لجواد على ساحل بلوشستان ، لكن ناصر بن ثويني والذي ينتمي أحواله للبلوش سرعان ما استولى عليها . ووقفت بريطانيا في وجه عزان لمنع من استعادة الممتلكات العُمانية^(٣٣) ، وحجتها أنها تقوم بذلك محافظة على السلم البحري ، وإنها تحول بين الأطراف المتصارعة من أن يشن أحدهم على الآخر حملة بحرية^(٣٤) ، وهذه حيلة أوروبية أخرى اتقنها الإنجليز ، حيث يحافظون على السلم طالما خدمهم ، ولا يتورعوا عن زج أي منطقة في نيران الحرب إذا ما توافق ذلك مع مصلحتهم .

كان الإباضيون تحت زعامة عزان بن قيس ينتقدون على حكام مسقط استسلامهم للأجانب ويدعون إلى نبذ الاتفاقيات التي عقدها السيد سعيد التي تمنحهم امتيازات عديدة^(٣٥) ، ولقد أملت هذه السياسة على النظام الجديد جملة من تصرفاته العملية ، وبالذات تجاه بريطانيا ، حسب ما يقول العقاد .

ولقد تم أول اتصال بين الإنجليز وعزان بن قيس بعد مقتل أبيه ، واستيلائه على السوق والخابورة ، وقبل أن يبائع إماماً ، وقد كتب إليه الوكيل البريطاني حينئذ « يأمرهم باسم الحكومة البريطانية بأن يسلموا المدن التي استولوا عليها للحاكم الشرعي لعُمان ... »^(٣٦) . وحاول الوكيل البريطاني بنجيلي تحريض المقيم السياسي البريطاني العام في الخليج ضدهم . ولكن بدا هذا التصرف وكأنه لا يتسق والسياسة البريطانية القائمة حينئذ والتي كانت ترمي إلى إقتصار السيطرة والتدخل على الساحل وتفادي التوغل داخلاً ، والتركيز على المواقع الأساسية في الساحل ، ولم تكن رائحة بترول الداخل قد تطايرت بعد . وهكذا قامت حكومة بمباي بإعلان رفضها لمبادئ بنجيلي ذلك في شباط ١٨٦٢ وعينت بدلاً منه في نفس العام العقيد جرين .

قام المقيم البريطاني العام ببيلي بعد نجاح حركة عزان بن قيس بزيارة إلى مسقط وقدم دعوة لعزان لزيارته ، فلم يرد الإمام على الدعوة . وامتنعت بريطانيا عن الاعتراف بعزان ، زمنياً طويلاً ، وحينما قررت الاعتراف ، لم يتم ذلك من الناحية الفعلية ، حيث أن الدولة شارفت على أيامها الأخيرة . وكان لهذا الاعتراف تأثيراته الحساسة ، كما سبق القول ، على جملة النشاط الإقتصادي والتجاري ، وخاصة فيما يعني إشاعة الثقة في أوساط التجار الهنود في مسقط وغيرها من المدن . وغضت بريطانيا الطرف عن امتناع ماجد بن سعيد تسليم معونة زنجبار إلى مسقط حسب الاتفاق الذي عقده بريطانيا وجعلت من نفسها ضامناً له ، وتركت في الوقت نفسه الأموال تتسرب إلى يد تركي بن سعيد . اتصل الإمام بالبريطانيين سنة ١٨٦٩ للحصول على اعتراف دوماً نجاح . وفي تلك الأثناء سمحت سلطات الهند لتركي أن يغادر بمباي وأن يباشر سيرته لإسقاط عزان بن قيس .

ويعلق لاندن على الدور البريطاني فيقول :

« بفضل التأييد البريطاني والتعويض المالي من زنجبار ، استطاع سالم بن ثويني الإحتفاظ بالحكم من سنة ١٨٦٦ ، بالرغم من عدم تأييد العُمانيين له ، بينما لم يستطع عزان بن قيس المؤيد من جانب الشعب أن يستمر في الحكم أكثر من ثلاث سنوات ١٨٦٨ - ١٨٧١ لعدم اعتراف البريطانيين به أو تأييدهم له . ولم يكن في وسع أي حاكم عُماني أن يبقى في السلطة ، إذا لم يكن البريطانيون راضين عنه » (٣٧) .

أما المؤرخ الاستعماري البريطاني لورير فيقول :

« لولا رفض الحكومة البريطانية الإعتراف به رسمياً . وفقدانه بالتالي معونة زنجبار ، وإطلاق حكومة الهند سراح عدوه الخطير السيد تركي ، لكان عزان استطاع أن يتغلب على الصعوبات التي اعترضته جميعاً ، ولاستطاع أن يقيم في عُمان ملكية على درجة عالية من التنظيم والكفافية ولو لفترة من الزمان » (٣٨) .

وهكذا يبدو أن بريطانيا كانت حينما قد بدأت في ترتيب مسألة الإعتراف كانت تستهدف في الحقيقة أن لا تقطع جسورها مع نظام الإمام ومع تيار المحافظين ، وترافق ذلك مع إفساح المجال لتركي للعمل ، وهو يمثل تيار المعتدلين ، وذلك حسب التقسيمات الأوروبية . وهذا نمط آخر من أنماط التعامل الذي اقتصاه الأوروبيون في العصور الحديثة في تعاملهم مع الحكام العرب ، حيث يتدخلون في شؤون بلدانهم ويستخدمون كل أساليب الضغط والإكراه ، ويرجحون كفة أحد الإتجاهات والزعامات التي تمثله ، في مواجهة طرف آخر ، وسط الحفاظ على كل مظاهر عدم التدخل ، والعمل

حسب الأعراف الدولية مع الدول المستقلة ، وإبقاء التدخل المباشر الجاهز كالكي ، أي كأخر الأدوية ، لمواجهة التغيرات التي تمر بها تلك البقع الواقعة على الأطراف الشرقية والجنوبية من الوطن العربي .

فبين حاكم قوي وحاكم أقل قوة ، تفضل بريطانيا الأخير . وبين حاكم لديه تصورات محددة إزاء مصالحه المنطلقة من القوى التي يمثلها ، وبين حاكم يركز أساساً على تحالفه مع قوة أجنبية ، تميل بالطبع إلى الأخير . وهكذا كانت مواقف حكومة بومباي ، واضحة ، وقراراتها متسقة مع مصالح الإمبراطورية .

ولم يكن حظ عزان وافرأ في امتلاك عمق عربي أو اسلامي . لقد تمكنت الدول الأوروبية أن تحرث الأراضي المحيطة ، وأن تجعل من السلم البحري ، والعلاقات مع الدول الأوروبية « البهية » ، والحفاظ على اتفاقيات ١٨٢٠ والتوازن إزاء الضغوطات الأوروبية المختلفة ، أمور تحسب لها الدول الإسلامية والعربية وحتى تلك الواقعة في الجزيرة العربية ، ألف حساب . ففرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية وألمانيا ، كانت كلها قد أخذت تحيط بالعالم العربي والإسلامي وتعمل فيه قسماً ونهشاً من الشمال والجنوب . وكانت حالة ميلان القوى لصالحها ، ولم تعد الدول العربية الإسلامية والعربية تملك ديناميكيته الخاصة ، وإرادة فعلها الذاتية .

وبأية حال فلم تكن هناك من قيادة تاريخية تمثل المركز العربي . وحركة الوحدة والتجزئة قد جمدت قوانينها بحكم الوجود الأجنبي الأوروبي الذي كانت موازين قوته تفعل فعلها الأمضى ، وتشد الحركة إلى حد كبير إلى جانب المصالح الأوروبية وتصوراتها وسياساتها .

لم يتمكن عزان بن قيس من استقطاب ثقل إمارات الساحل ، ووجد نفسه في صراع مع القوة السعودية كما وجدت هي نفسها في هذا الصراع

الدامي ، المحجّم والمحدّد سقفه بحكم النفوذ البريطاني والإتفاقيات والمعاهدات التي تحميها بوارج الأسطول . اتسمت علاقات عزان بالسعوديين بالعداء الشديد . ورغم أن عزان قد اتصل بالسعوديين عام ١٨٦٤ حينما كان حاكماً على مقاطعة الرستاق وحاصره ثويني بها ، وقد بادروا إلى نجده و استطاع أن يحتفظ لنفسه بالمقاطعة . ولكننا نرى الدكتور جمال زكريا قاسم يقول : « ... كان إنبعاث الإمامة في ذلك الوقت بمثابة وضع إضطراري لمواجهة النفوذ السعودي الذي كان جائئاً على السلطنة ومهدداً لمعظم مقاطعاتها تهديداً خطيراً »^(٣٩) .

ولقد بدأ عزان إثر إستلامه السلطة بإتباع سياسة تجنب إلى الاستقلال ، فاستطاع بعد حين استعادة البريمي ، وهي مركز تقليدي للسيطرة السعودية على تخوم داخلية عُمان . وقد تم له ذلك بمساعدة النعم وزايد بن خليفة شيخ أبو ظبي وذلك عام ١٨٦٩^(٤٠) . ولقد أرسل الأمير السعودي بعد أن فشلت ثورة الغافرية عام ١٨٦٩ التي نصرها السعوديون ، مبعوثاً من قبله للإمام عزان يطلب منه المبادرة بدفع الجزية التي اعتاد السعوديون أن يتلقوها من مسقط ، وبطبيعة الحال رفض الإمام دفع الجزية بل واعتقل مبعوث الأمير^(٤١) ، وهكذا انفتح الباب أمام الصراع بين القوتين .

وكانت السياسة البريطانية قد عملت على أن يظل الصراع السعودي العُماني مشتتلاً دون أن يتمكن السعوديون من مد نفوذهم إلى السواحل ، ودون أن تشعر الإمارات الواقعة هناك أنها في مأمن من طموحات القوة القادمة من داخل الجزيرة . وإزاء ذلك الوضع عقد سعيد بن سلطان أربع معاهدات مع الوهابيين لتنظيم مسألة العلاقة معهم ، وعكست تلك المعاهدات التي عقدت أعوام ١٨١٠ و ١٨٣٣ و ١٨٤٥ و ١٨٥٣ موازين القوى بين الطرفين .

وينقل المؤرخ البريطاني كيلى ، أن تركي السديري نائب الوهابيين في البريمي قد قام في نيسان عام ١٨٦٩ برحلة إلى الشارقة ليدرس إمكانية جمع مشايخ الساحل لنصرة سالم بن ثويني الذي كان حينذاك في الساحل يحاول جمع الأنصار والمساعدات . ويقول كيلى أنه قد ذكر للمقيم السياسي النقيب أى . كوتون داي بيلي حينما التقى معه في الشارقة ، أنه لم يتلق أوامر واضحة محددة من الأمير عبدالله بمساعدة سالم ولكنه يفترض أن الأمير لن يتضايق من الإطاحة بعزان^(٤٢) . ويذكر أنه بسبب من شكوى قبيلة النعيم من حكم السديري فإنها « وجهت الدعوة لعزان للمجيء والسيطرة على البريمي ... » و[أن] عزان والخليلى ... قبلوا عرض النعيم^(٤٣) . ويواصل الحديث فيقول : بأن عزان زحف على الواحة في شهر حزيران ، وأرغم الحاميات السعودية في الحصون على التسليم في الثامن عشر من ذلك الشهر ، ويقول أن عزان أرسل رسالته في هذا الصدد إلى المقيم العام في الخليج تحدث فيها عن الأحداث وعن لقائه بالشيخ زايد ، وقد ورد فيها « عدنا إلى مسقط والحمد لله ... بعد أن اقتحمنا مدينة البريمي في معركة استمرت أربعة أيام ... وهكذا أنقذ الله عبيده من الوهابيين المعتدين ... ووصل الشيخ زايد حاكم أي ظبي الى البريمي وأقسم على دوام الصداقة بيننا ، كما وعد بمقاومة الوهابيين »^(٤٤) .

وصل الصراع بين القوتين إلى أقصاه بورود التهديد السعودي إلى الإمام . ولقد كان لموقف الرفض وما تلاه آثاره الواسعة . وعاشت عُمان على أعصابها في الفترة التي تلت متوقعة الغزو السعودي حيث هدهم الأمير السعودي بقدم عشرين ألفاً لغزو عُمان . وقد أدى ذلك إلى فرض ضريبة الحرب على المواطنين لمواجهة تكاليف الاستعدادات لمقاومة السعوديين . غير أن إنشغال السعوديين بعد ذلك بالصراعات الداخلية أدى إلى عدم حدوث

وما كانت الدولة العثمانية في حالة من القوة لتمد ببصرها إلى الجنوب
القصي ، وهي التي لم تكن قد تمكنت من فرض هيمنتها على عُمان إبان
قوتها . بل قد استعانت ببحرية عُمان أيام أحمد بن سعيد كما مر بنا سابقاً .
وأما فارس فما كان بينها وبين عُمان يؤدي إلى الخلاف أكثر مما يؤدي إلى
الإتفاق . وعلى أية حال فلم يدر بخلد الإمام أن يتجه نحو تشكيل محور بأفق
يجوز كل هذا الإتساع ، ولم يضع ذلك ضمن مخططاته . وخارج قوى الجزيرة
العربية لم تتعد اتصالاته إرسال الرسالة اليتيمة إلى إباضية المغرب . وإذا
كانت عُمان قد نجحت تاريخياً في أن تشكل مركزاً لقوة عربية إسلامية في
المحيط الهندي ، فلم تتمكن أن تقوم بذلك الدور حين النظر شمالاً .

لقد كانت تحالفات عزان بن قيس الخارجية محدودة ، بينما حظي تركي
بن سعيد بحلفاء عديدين في مقدمتهم بريطانيا . والتي كانت تعنى بدعمه أن
تزيد من نفوذها في عُمان ، وهذا ما حدث في السنوات التي تلت

هوامش

- (١) Pauline Searle, Dawn Over Oman, Beirut: Khayat, 1975. P. 12.
- (٢) م. ن. ص XXI.
- (٣) م. ن.
- (٤) Townsend, P. 16.
- (٥) م. ن. ص ٢٤.
- (٦) م. ن. ص ٢٧.
- (٧) م. ن. ص ٣١.
- (٨) Peterson, P. 13.
- (٩) م. ن.
- (١٠) م. ن.
- (١١) Townsend, P. 29.
- (١٢) م. ن.
- (١٣) Peterson, P. 29.
- (١٤) Searle, P. 12.
- (١٥) Peterson, P. 13.
- (١٦) Townsend, P. 29.
- (١٧) م. ن. ص ١٧.
- (١٨) م. ن. ص ٢٩.
- (١٩) Peterson, P. 20.
- (٢٠) م. ن. ص ٢١.
- (٢١) العاني ، ص ٧١ - ٧٢.
- (٢٢) تاريخ أهل عُمان ، ص ٣٧ وما بعد.
- (٢٣) المعولي ، ص ٣٩.

الباب الخامس

حوادث أسباب القضا في تعدد

فلاني وما تقضي به في تجدد

مرثية للشاعر العماني

عبدالله بن خلفان بن قيصر

(٢٤) العاني ، ص ٨٦ .

(٢٥) م.ن. ص ٢٥ .

(٢٦) الشعاع الشائع باللمعان ، ص ١٢ .

(٢٧) Peterson, P. 136

Ian Skeet, Muscat and Oman. London, Faber and Faber, 1974, (٢٨)
p. 211.

(٢٩) الدكتور محمود خيرى عيسى (اشراف على الدراسة). العلاقات العربية
الأفريقية ، دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة . القاهرة : المنظمة العربية للتربية
والثقافة والعلوم ، ١٩٧٨ . ص ٤١ .

(٣٠) م.ن. ص ٨٨ .

(٣١) Peterson, P. 139-40

(٣٢) لاندن ، ص ٢٨٣ .

(٣٣) م.ن. ص ٨٠ - ٢٨٢ .

(٣٤) لوريمر ، ص ٧٥٠ .

(٣٥) الدكتور صلاح العقاد . التيارات السياسية في الخليج العربي . القاهرة :
مكتبة الأنجلو - المصرية ، ١٩٦٥ . ص ٢١٥ .

(٣٦) لوريمر ، ٧٣٤ .

(٣٧) لاندن ، ص ٧٨ - ١٧٩ .

(٣٨) لوريمر ، ٧٦١ .

(٣٩) دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ ، ص ١١٣ .

(٤٠) م.ن. ص ٥ - ١٠٦ .

(٤١) م.ن. .

(٤٢) كيلى ، ص ١٣٤ .

(٤٣) م.ن. ، ص ١٣٥ .

(٤٤) م.ن. ، ١٣٦ .

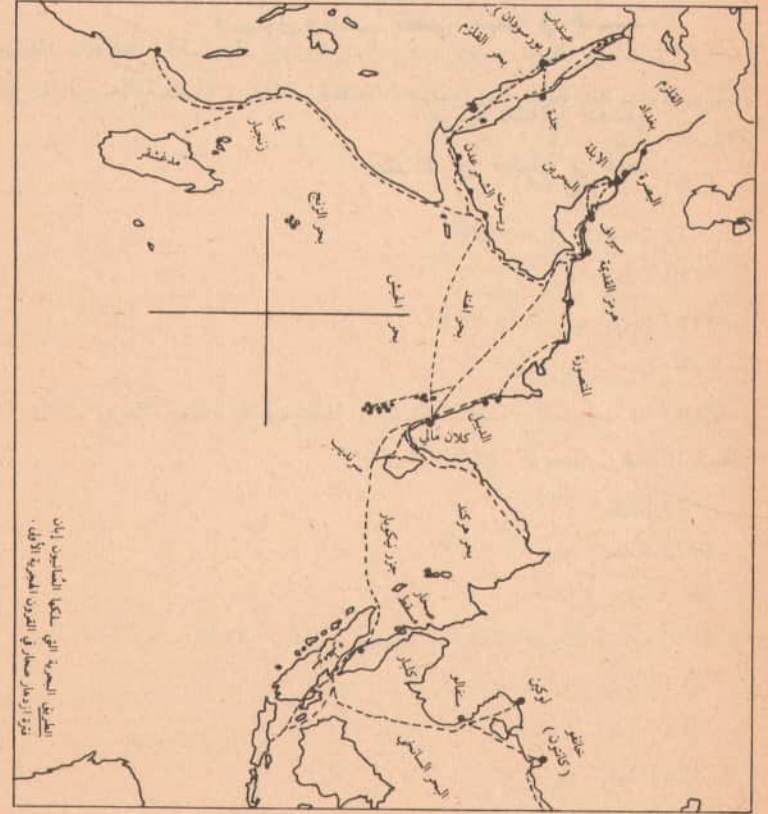
الباب الخامس

باب

رد الريح

تكاثفت الأحداث ، وتزايدت حدة الصراعات وأخذت تبحث عن مخرج وباتت الأمور المعلقة تفتش عن حسم ما .

يتحدث السامي عمن أسماهم بالمنافقين في صفوف الإمام ، ويقول بأنهم قد بدأوا في مكاتبة تركي بن سعيد^(١) . ويبدو أن تأثير بروز هذه الظاهرة سيتزايد مع مرور الوقت . سافر تركي كراكب عادي على إحدى السفن البريطانية . وقدم إلى مسقط ، فلما دخلها وتوسط بين القلاع « رأى بيارق المسلمين بيضاء تنور ... فلما رأى ذلك هاله وقال الله يعيننا عليها حتى تكون حمراء . وكانت الرايات الحمر من شعار آل سلطان ابن الإمام والرايات البيض من شعار عزان بن قيس »^(٢) . ذهب تركي إلى لنجه فبندر عباس حيث استقبله الحاج أحمد بن محمد . وتوجه من هناك إلى دبي ، ويقول لاندن بأنه حاول اقناع الحكام بدعم الإنكليز له ، وإحتال مساعدة السعوديين له . ولكنه لم يتمكن من الحصول على تأييد زايد بن خليفة أو تأييد الشيخ محمد ، شيخ النعيم « كما أن تركي لم يكن في الحقيقة يحظى بتأييد البريطانيين حتى إنهم حذروه من القيام بأي محاولة قد تعكر الأمن أو الهدنة الملاحية في المنطقة أو مهاجمة مسقط . وإلا فإنه سوف يصبح عدواً في نظرهم »^(٣) . وبسبب الإخفاق الذي واجهه في إجتذاب شيوخ الساحل ، غادر إلى بندر عباس .



الطريق البحرية التي سلكها المسلمون إلى
نورة زيدل شعار في القرن العشرين الأول .

وتتسق الملاحظات التي أكدتها السلطات البريطانية مع سياستها العامة التي وضعتها للمنطقة بشكل شامل في محاولتها الحفاظ على ما سمته السلم البحري والهدنة من حيث أنها تحافظ على هدوء المنطقة لكي تواصل المصالح البريطانية استخدامها للخطوط البحرية من الهند وإليها. وما أن تشتمل هذه المنطقة بالحروب حتى تأخذ كل قوة بمحاولة زيادة قدراتها، وستجد نفسها في بادئ الأمر وفي نهايته في حالة اصطدام مع بريطانيا. وهذا ما مثلته تجربة القواسم في بعض مناحيها. وهذا ما أرادت بريطانيا من محاولة وضع سقف لتلك الصراعات وحجم معين لا تتجاوزه، وبعد ذلك فيمكن إقامة تحالفاتها مع هذا الطرف أو ذاك بمقدار ما ينسجم مع هذا المخطط، ويلتزم به، ولا يبرز أوضاعاً يمكن أن تشكل على المدى الطويل مرتكزات تتناقض وبريطانيا.

تلقي تركي في ذلك الحين وعداً من أخيه ماجد لتقديم مساعدات مالية. وقد تسلم ما قيمته ٢٠٠.٠٠٠ ريال نمسوي وتعهد بدفع ثلاثين ألف ريال بمجرد استيلائه على أحد الموانئ العُمانية. وكان ماجد يضبِق من إلزامه بدفع تعويض زنجبار لحكام مسقط من قبل «فقد رأى في ذلك نوعاً من الأتاوة التي يدفعها التابع إلى سيده»^(٤)، ولكنه دفع ذلك كمساعدات ولكي يأمن عدم إنقلاب الأمور في مسقط على غير ما يشتهي. وتأمل تركي في الحصول على عشرة آلاف ريال من السعوديين في حالة اقناعهم بذلك. وبهذا الدعم عاد إلى دبي بالساحل فحصل على تأييدها وتأييد رأس الخيمة وعجمان وشيخ النعم وبني قتب. واستطاع اقناع بعض القبائل وعلى الأخص من كان ينتمي إلى الغافرية بتأييده وكانت هذه القبائل تضم الدروع والحبوس وآل وهيبة.

وعلق السالي على قدوم تركي في هذه المرة فيقول «تعصبت له الغافرية أجمع وباطنتهم رؤوس النفاق من الهناوية»^(٥)، وتجمع غافرية

الشمال يريدون أخذ البريمي، فقاتلهم زايد بن خليفة وحال دون ذلك، وذهب تركي إلى محضة من بلاد النعم. فأظهر الغافرية في عُمان خلافت استدعت قدوم الإمام إلى المضبي حيث واجهه رؤسائهم، ولكنهم لم يتوصلوا إلى اتفاق عميق ف«أرضوه في الظاهر، وفي قلوبهم الشحاء»^(٦)

قرر الإمام أن يعود إلى نزوى لينظم قواه ولكي يعيد النظر في الأساليب التي اتبعها وبالذات في جوانبها العسكرية. وطلب إلى الشيخ صالح بن علي أن يسير على مقدمة الجيش في طريق العودة. وشهد الطريق أولى الاشتباكات مع الجنبه والدروع. ويروي عن صالح بن علي أن رأي الإمام قد استقر حينئذ على أن يتمركز بنزوى وأن يجعل منها موطناً له. ويقول أنه قرر أن ينتخب من شجعان العرب ألف راكب، ويستخدمهم كقوة ضاربة متحركة وذلك لكي يتفادى الإستنجاد بهذه القبيلة أو تلك وبالذات بعد أن رأى صعوبة استخدام هذه الطريقة وسط الظروف الحاصلة «فيخف بذلك الغرم عن بيت المال وعن الرعية في أوطانهم ويكفيهم الإمام بشرارته أمر الحرب»^(٧). وعلق السالي والذي كتب تحفته كمحاولة لاستخلاص الدروس من التاريخ العُماني وذلك كجزء من حملته الفكرية والتعبوية التي سبقت أحداث ١٩١٣ العارمة بعُمان، فقال «وأقول أن هذا الرأي هو الرأي وينبغي أن يوصى به أول المسلمين آخرهم فمن استطاعه منهم فليفعله»^(٨).

وترتدي نزوى أهمية خاصة لدى العُمانيين، وتحتل موقعاً مميزاً في مسار تاريخهم. فهي بيضة الإسلام وكرسي مملكة العرب حسبما يسميها السالي. أما محمد بن عبدالله السالي، فقد أوردها ضمن حديثه عن داخلية عُمان، ويصفها على النحو التالي:

«نزوى وهي عاصمة مملكتها... يوجد بنزوى من الأشجار والنخيل والفواكه ما لا يوجد بغيرها في عُمان وبها

الأنهار وعليها المعول والآبار وهي قليلة اتخذها الأئمة الأولون عاصمة ملكهم ، وكان أسطولهم في القديم قد بلغ مبلغاً عظيماً فقهروا شطراً من الهند وأفريقيا ، فما رغبوا عنها فترى لك الآثار ما يدل على جلالتهما والتاريخ شاهد عدل «^(١) .

على أية حال فإن الأمور سارت بمجرى آخر متسارع ولم تترك لعزان أن ينفذ خطته تلك . فقد توجه الإمام إلى الظاهرة لمعالجة أمورها ولإخضاع من تمرد عليه بها ، فمر ببيرين فحدثت بعض المناوشات . ثم عاد واشتبك مع الغافرية في لجة عبرى ، وقد حالفه النجاح . ووصل إلى الظاهرة فاستولى على حصن العينين التابع لبرغش بن حميد . ولقد تزايدت مخاوف معارضيه الموجودين ضمن جيشه ، وذلك حين همّ الإمام بالتوجه إلى ضنك « فأرسل المنافقون إلى رؤوس الأعداء أن لا قوا للإمام بضنك ونحن أهل الشرقية لسنا معه ولا نسير معه ، وكانت الأعداء تهاب أهل الشرقية أكثر من غيرهم »^(١٠) .

توجه الإمام إلى ضنك وتحلّف أهل الشرقية عنه ، بعد أن أظهروا الخلاف على التوجه إلى ضنك . وكان هناك مدخل ضيق ذو أهمية عسكرية ، لا بد للذهاب إلى ضنك من المرور به وبالنظر إلى ذلك فقد قدّم الإمام بني زيد من مدخل الوادي ولكنهم إنقلبوا عليه « فلما توسط الجيش الوادي جاءهم الضرب من بني زيد فكانت الهزيمة على المسلمين ، وقتل منهم خلق كثير وأكثر المقتولين من أهل الباطنة »^(١١) . وتشكل هذه المعركة منعطفاً حاسماً في الأحداث ، ويصفها السالمي أنها أول ظفر للأعداء ، وإن كان الظفر الأول الفعلي هو ما حدث من قتال بأطراف نزوى ، حسب رأيه .

حدثت معركة ضنك في أوائل تشرين الأول وقد قدرت قوات الإمام بـ ٤٠٠٠ مقاتل بمساعدة مدفعين . ويروي لاندن أن قوات تركي قد فاجأهم في ذلك الممر الضيق واشتبكت معهم في معركة ضارية سقط بها ٤٠٠ قتيل من جانب الإمام^(١٢) .

عاد عزان بقواته إلى مسقط وترك أمر الشرقية لقوات صالح بن علي للدفاع عنها . ويبدو أن الخلافات قد تزايدت في صفوف الإمام وأن حركة قد أخذت بين صفوف المعارضين القائمين بين قواته باتجاه الإلتقاء على موقف معين « ... خافت الخونة على نفوسها القتل وعلموا أنهم قد أظهروا الخلاف للإمام ... فكاتبوا شرق البلاد وغربها ... وبقيت المكاتبة والطروس تتراسل من جعلان إلى الغبي ومن الغبي إلى جعلان ، ومنهم إلى الغافرية الذين بعمان والظاهرة »^(١٣) .

وأدى انتصار تركي بضنك إلى ازدياد مؤيديه . وأخذت أفواج جديدة تنضم إليه . ونجح في الفترة التالية في اجتياح مقاطعتي الظاهرة وعُمان الوسطى ، وظل يتقدم بقواته حتى وصل جعلان حيث انضم إليه بني بوعلي وبني بوحسن ، وزحفت جموعه كلها على مدينة صور الساحلية . وبلغ مجمل ما صرفه حتى ذلك الوقت ٨٠,٠٠٠ ريال تقريباً . وفي أوائل شهر تشرين توفي ماجد حاكم زنجبار وخلفه أخوه برغش بن سعيد .

وكانت في نفس برغش رغبة في الحكم منذ وفاة والده سعيد ، وتذكر أخته سالمة أنه حاول أن يدفن أبيه سرّاً ودوغا المشاركة المعتادة ببراسم الدفن ليتسنى له الاستيلاء على الحكم . وحاول أن يقوم بانقلاب ولكن ماجد أفشل محاولاته ، ثم وافق على مغادرة زنجبار وعاد إلى زنجبار بعد أن « صفح عنه ماجد ، فرجع وقد حنكته التجارب وأصقلته الحوادث » . وكان قد عاش في بومباي حيث لقي تكريماً من الحكومة ومنح داراً للسكن ومعاشاً قدره ألفا روبية وأقام هناك ثمانية عشر شهراً^(١٤) ويصفه

عبد المجيد القيسي في مقدمته لمذكرات سائلة بنت سعيد بأنه « كان عنيفاً حاد المزاج غليظ الطبع قاسياً وحقوقاً على أهله وقومه ، ولكنه كان أمام الأنكليز ضعيفاً متخاذلاً لا يملك غير الاستسلام لمطالبيهم وأوامرهم »^(١٥) على أية حال لم يكن برغش محباً لقيس بن عزان بن قيس .

وصلت الأمور إلى نوع من التوازن بالرغم مما حدث في ضنك . فمن جانب أخذ الإمام يعيد النظر في قواته ويحاول أن يعيد تنظيمها ، وبالمقابل قام تركي باعادة تقييم لقواته في محاولة لإعادة توزيعها بشكل يمكنه من انجاز أهدافه . وبدا للإنكليز أنه قد استنفذ قواه ، وتوقع ببلي منه أن يعجز عن مهاجمة مسقط^(١٦) وربما فكر الإنكليز في ذلك الوقت بالتحديد بالاعتراف بدولة الإمام .

وكانما توصل تركي إلى رأي بأنه بات عليه أن يضرب فوراً أو أن يخسر الحرب ، « فقام بتوزيع قواته توزيعاً استراتيجياً »^(١٧) ، فاتجه إلى سمد داخل الشرقية ليهاجم صالح بن علي . فتلقاه الأخير ومعه فيصل بن حمود ، فذهب تركي إلى سناو . وتقدمت مجموعة من بني بو علي ومن بني بو حسن وعلى رأسها سيف بن سليمان آل بو سعيد ، باتجاه مسقط « ولم يكن ببال المسلمين أن سرية جعلان تصيب غرضها لقلعة عدهم »^(١٨) .

ونرى أن هذا التقدير ليس بعيداً عن الواقع ، وحتى الإنكليز كانوا قد شكوا في ذلك الحين في مقدرة تركي على حسم الأمور لصالحه . ولكن كانت النتائج الحاسمة التي حدثت بعد الاشتباك الذي جرى على أسوار مطرح ، أبعاداً تفوق المعركة بحد ذاتها والقوى العسكرية المجردة المشاركة فيها . ولكن بأخذ الأمر ضمن سياق ما حدث طيلة السنتين اللتين سبقتا ، لا يظهره كحدث منفصل أو خارق .

قدم المهاجمون وتسور بعضهم أسوار مطرح « والإمام يقاتل من أعلى السور ، وجاءت ضربة تفق فأصاب الإمام ، فاستشهد رضي الله عنه وقيل

أن التفق [البندقية] كانت من الذين معه داخل السور »^(١٩) . ولقد قتل قائد قوات تركي في الهجوم وهو سيف بن سليمان على السور نفسه ، وكان ساعد تركي الأمين . واستسلمت بقية الحاميات . وكان تركي في ذلك الوقت مشتبكاً مع قوات صالح بن علي ، فما أن سمع بما حدث حتى انتقل في حراسة ٥٠٠ رجل من راكبي الجمال ليقبض ثمن النصر .

لم يفقد الخليلي الأمل ودعا ابراهيم بن قيس لينصبه إماماً ، ولكن الأخير رفض ذلك بعد أن شاور في الأمر البعض ، فأشاروا اليه بأن الدولة زائلة ، فذهب الى صحار ليتداركها وكانت منطقة نفوذ تقليدية العالمية . ويقول لاندن هنا بأن الخليلي قد طلب من الإنكليز أن يضمنوا حكم ابراهيم مقابل حصولهم على ربع الدخل السنوي للبلاد ، ولكن المقيم ببلي لم يتعهد بشيء في رده على طلب الخليلي واكتفى بمراقبة الأحداث . وكان الخليلي في ذلك الوقت متحصناً في الكوت الشرقي بمسقط ، وقد طوقته قوات تركي بن سعيد ، وقد أخذت قواته تتخلى عنه . وجاءه بعض رؤساء الهناوية وعرضوا عليه أن ينزل على يدهم . فلم يقبل أن ينزل على أيديهم لما علم من خيانتهم ، ونزل على يد قنصل النصارى ظناً منه انهم لا يرضون في ذمتهم ... فخانه القنصل وسلمه إلى تركي . فقيدوه وولده محمد^(٢٠) .

يذكر لاندن أن المقيم ببلي تدخل في أوائل شهر شباط للتخفيف من الأضرار والخسائر التي قد تتعرض لها الحياة التجارية والممتلكات في البلاد . وأقنع الخليلي بتسليم نفسه للسلطات بعد أن تعهد له تركي بالشروط التالية :

١ - أن لا يعتبر الخليلي مسؤولاً عن أعمال حكومة عزان بما في ذلك سياسة مصادرة الممتلكات .

٢ - أن يسمح للخليلي بالإقامة في أي منطقة يختارها من عُمان على شرط محافظة تركي على حياته .

٣ - أن تبقى جميع الممتلكات في أيدي أصحابها الحاليين .

٤ - أن تعتبر كافة الطلبات والدعاوى ساقطة .

٥ - أن يتكفل تركي بن سعيد بالإنفاق على جيش الإمام عزان .

٦ - أن يسري هذا الاتفاق على جميع حكومة المحافظين وأتباعهم .

٧ - أن يضمن المقيم ببلي تنفيذ بنود هذا الاتفاق^(٢١) .

ويذكر لاندن أن الاتفاقية لم تنفذ بالرغم من كل هذه الضمانات . وان الخليلي توفي في شهر آذار عام ١٨٧١ ولحقه ولده بعد ٤٨ ساعة وسط ظروف تشير الى وجود مؤامرة ، وبالتالي أعيدت المصادرة الى أصحابها الأصليين^(٢٢) أما عبد الله السالمي فيقول بأن تركي كان يود الانتظار في الأمر ، ولكن أحد عماله وهو ثويني بن محمد خاف أن يعفو عنه تركي فسار اليه بغير اذن وقتله هو وولده ، وقد قتل ثويني فيما بعد^(٢٣)

ويروي السالمي في تحفته بأن الإمام بقي ثلاثة أيام لم يدفن « فلم يتغي » ، ودُفن بعد ذلك في جبروه من مطرح وكانت مدة إمامته سنتين وأربعة أشهر وخمسة عشر يوماً^(٢٤) .

وعندما وصل خبر مقتل عزان وانتصار تركي بن سعيد أطلق السيد برغش بزنجبار مائة طلقة مدفع وطلقة إستبشاراً بقتل الإمام وانتصاراً للسيد تركي بن سعيد . وبعد ذلك وقع بزنجبار طوفان عظيم وريح اقتلعت جميع أشجار القرنفل (وهي أهم شجرة نقدية بالبلد) والنارجيل وسائر الأشجار ، وتهدمت البيوت . ولما هاج طوفان البحر واشتدت الريح اجتمع السيد برغش ومعه عدد كبير من الناس في مسجد الجمعة ، وكان الشيخ الفرعي قريباً منه فالتفت إليه ، وقال له : هذا جواب طلقة واحدة من طلقات مدافعك^(٢٥) .

استمر تركي بن سعيد حاكماً لعُمان طيلة الفترة بين ١٨٧١ وحتى ١٨٨٨ . وقد شهدت فترة حكمه اضطرابات عديدة ، وإن كانت أمور

السلطة قد ظلت في ركود نسبي وانتقلت إلى ابنه فيصل فيما بعد . ويقول لاندن أن تركي « أدرك بعد سنة ١٨٧٣ أن بقاءه في الحكم والمحافظة على وحدة البلاد مرتهن باعتاده على الحكومة البريطانية . وهنا إلتقت مصالح تركي بالمصالح البريطانية »^(٢٦) . وأما صالح بن علي فقد استمر على حالة عدائه واستمر محاولاً إعادة الإمامة ، وهاجم مسقط مرتين ، وقد توفي في ١٣١٤ هـ إثر إصابته برمية في فخذه في هجوم على بني جابر في اللجيلة وقد خلفه ابنه عيسى بن صالح الذي أضحي ركناً أساسياً من أركان إمامة سالم بن راشد الخروصي عام ١٩١٣ . أما إبراهيم بن قيس فقد تحصن بصحار ونواحيها فترة واضطرته قوات السلطان إلى تركها والذهاب إلى الرستاق وفيها فيصل ابن حمود و« كان فيصل هذا قد غلبه أمر السياسة وأحب التخلي عن الملكة »^(٢٧) ، فتنازل عن الحصون التي في يده ودفعها إلى إبراهيم لقاء قطع من بيت المال . وفي ١٣٠١ توفي الشيخ محمد بن سليم الغاري ودُفن بالحنّة من الباطنة .

★ ★ ★

- (١٩) م. ن. .
 (٢٠) م. ن. .
 (٢١) لاندن ، ٢٨٦ .
 (٢٢) م. ن. .
 (٢٣) تحفة الأعيان ، ص ٢٢٧ .
 (٢٤) م. ن. .
 (٢٥) المغيري ، ص ٢٣٦ .
 (٢٦) لاندن ، ص ٢٩٠ .
 (٢٧) تحفة الأعيان ، ٢٣٢ .

هوامش

- (١) تحفة الأعيان ، ص ٢٢٢ .
 (٢) م. ن. .
 (٣) لاندن ، ص ٢٨٤ .
 (٤) سائلة بنت سعيد ، ص ١٦٤ .
 (٥) تحفة الأعيان ، ص ٢٢٢ .
 (٦) م. ن. .
 (٧) م. ن. . ص ٢٢٣ .
 (٨) م. ن. .
 (٩) نهضة الأعيان ، ص ٤٤ .
 (١٠) تحفة الأعيان ، ص ٢٢٤ .
 (١١) م. ن. .
 (١٢) لاندن ، ص ٢٨٣ .
 (١٣) تحفة الأعيان ، ص ٢٢٥ .
 (١٤) المغيري ، ص ١٩٩ .
 (١٥) سائلة بنت سعيد ، ص ٣٥ .
 (١٦) لاندن ، ص ٢٨٣ وما بعد .
 (١٧) م. ن. . ، ص ٢٨٥ .
 (١٨) تحفة الأعيان ، ٢٥ - ٢٢٦ .

الباب السادس

«أيها الأصحاب، إن عصرنا هذا عصر العلوم والنور،
عصر الحياة وتنازع البقاء، عصر الإجتماع والتكتل، عصر
الذرة والرادار، من رام أن يعيش فيه منفرداً ومنعزلاً عن
غيره داسته سنابك أيامه وازدروه إزدراء النهم لطعامه،
والذئب يأكل الشاة القاصية من الغنم».

من رسالة من إباحية المغرب لأهل عُمان

الباب السادس باب الخروج من عُمان

قدم الأوروبيون إلى البحار الجنوبية و« اكتشفوا » الطريق الموصل للهند في نهاية القرن الخامس عشر، وبالتحديد عام ١٤٩٨ م، وذلك حينما قاد الملاح العربي أحمد بن ماجد فاسكو داجاما إلى الهند منطلقاً من السواحل الأفريقية الجنوبية الشرقية، بعد أن ظلت سفنهم تراوح مكانها أمام سرّ الرياح الموسمية الذي عرفه العرب قبل عشرات القرون وحولوه إلى عامل مساعد للإنتقال بين أرجاء المحيط الهندي، بدلاً من أن يكون عقبة كأداء في وجههم. ومنذ أن وطأت أقدام الأوروبيين تلك البقاع حتى ملأوا سواحلها ومياها بالدماء، ونشروا العنف والهيمنة، وأحالوا أبنائها إلى الخلف وحرموهم من أداء مهامهم ودورهم العالمي الذي درجوا على القيام به على مدى القرون.

سيطر البدرو الفاريز على موزامبيق في ١٥٠٥، وتأسست حكومة نائب للملك البرتغالي في الهند، وأرسلت البرتغال أسطولاً للسيطرة على هرمز التي لم تتم السيطرة عليها إلا عام ١٥١٥. ولقد خططت كل مناطق الخليج للقيام بثورة شاملة ضد البرتغاليين عام ١٥٢١ ولكن المحاولة لم تكلل بالنجاح، وثار أهالي مسقط وقريات عام ١٥٢٦. وبعد ذلك بدأت الأساطيل المصرية والعثمانية في الظهور وذلك في مواجهة البرتغاليين.

مطرح في القرن
الثامن عشر

ولكن، وبالرغم من المعارك الطاحنة والإنصارات والهزائم المتبادلة، فإن البرتغاليين تمكنوا من فرض هيمنتهم بشكل عام على هذه الأرجاء، وفتحوا بذلك الباب للهيمنة الأوروبية الشاملة.

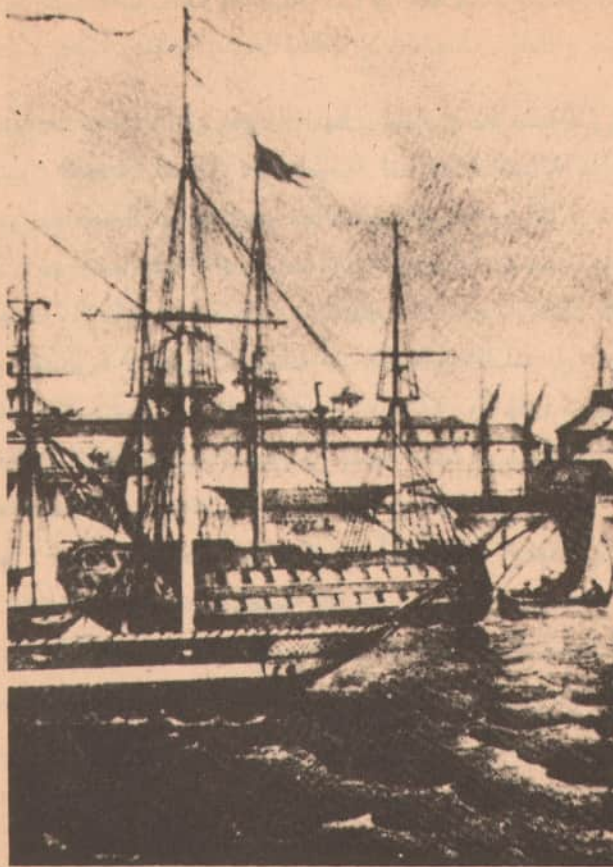
تأسست شركة الهند البريطانية عام ١٦٠٠، وأبحرت أول سفينة إنجليزية من سورات إلى جسك عام ١٦١٦، واشتبك البريطانيون والبرتغاليون لأول مرة عام ١٦٢٠ وذلك في جسك. واستمر عقود عديدة قبل أن يتمكن البريطانيون من فرض هيمنتهم ضمن الهيمنة الأوروبية ذلك بنهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

لقد قدم الإنكليز بعد تجارب أوروبية عديدة في الإستعمار، ولقد هضموها واستفادوا منها وأعادوا ممارسة الهيمنة ولكن بنحو «أعلى وأكثر تطوراً» لقد أبقي الإنكليز أسطولهم دائم الإستعداد وقواهم العسكرية جاهزة لأي قمع، ولكنهم أبقوا سلاح القمع مموهاً، بعيداً، لا يلجأون إليه إلا في آخر الأمر ولكن بحجم ودموية. لقد «هذبوا» أساليب الاستعمار مع المحافظة على جوهره وهو خضوع أمة أو مجموعة من الأمم لأمة أخرى أو لمجموعة من الأمم، وجعل مصالح الأمة المستعمرة (بكسر الميم) هي العليا، وهي المقياس الأول الذي يقاس عليه ما هو صحيح وما هو في مصلحة «كل المجموع».

وإذا كان البرتغاليون قد فرضوا مصالحهم التجارية بعد تثبيت مصالحهم العسكرية، فالإنجليز جعلوا الأسطول العسكري يتبع الأسطول التجاري، لا يفارقه، ولكن لا يتقدمه. وإذا كان البرتغاليون قد بشروا بالمسيحية وفرضوا القيم الغربية، مستخدمين في ذلك السيف وتقطيع الأيدي والأرجل وجذع الأنوف، فإن الإنكليز، أبقوا سيفهم مشرعاً، ولكنهم لم ينزلوه وإنما طالبوا بحرية التبشير والتشقيف وإطلاق الحرية لأوروبا والأوروبيين «لتحضير الناس والعمل من أجل تقدمهم». ولذلك بذل

الإنكليز جهوداً كبيرة لتحقيق تفوق عسكري حاسم ولكنهم طوروا جهازاً هائلاً من المؤسسات التبشيرية والثقافية والتعليمية لتحقيق الهيمنة الفكرية وجعل السيطرة بكافة أشكالها مقبولة. ويصف لنا ادوار سعيد هذا الجهاز المعقد على النحو التالي:

«كان الإستعمار في البدء يعني تمييز بل، بالفعل، خلق المصالح وتحديددها، المصالح التي قد تكون تجارية أو دينية أو ثقافية، أو متعلقة بالاتصالات. فقد شعرت بريطانيا، مثلاً، فيما يتعلق بالإسلام والبلدان الإسلامية أنها، بوصفها قوة مسيحية، ذات مصالح مشروعة تنبني المحافظة عليها. وقد نما جهاز معقد لرعاية هذه المصالح. فبعد المنظمات المبكرة مثل «جمعية نشر المعرفة المسيحية» (١٦٩٨) و«جمعية نشر الإنجيل في المناطق الأجنبية» (١٧٠١)، تشكلت جمعيات دعمتها مثل «جمعية التبشير الإنجيلية» (١٧٩٢)، «جمعية التبشير الكنسية» (١٧٩٩)، «جمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية» (١٨٠٤) و«الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود» (١٨٠٨). وقد شاركت هذه الإرساليات، بصورة صريحة في التوسع الأوروبي». فإذا أضفت إليها الجمعيات التجارية، والجمعيات المتفككة، ومؤسسات الإستكشاف الجغرافية، ومؤسسات الترجمة، وغرس المدارس والبعثات، والمكاتب القنصلية، والمصانع، والجاليات السكانية الأوروبية الواسعة، أحياناً، في الشرق، فإن مفهوم «المصلحة» يكتب قدرأ كبيراً من المعنى. ولقد أصبحت هذه المصالح تحمي، فيما بعد، بحماسة شديدة وبنفقات عالية»^(١).



السفينة ليفربول التي تضم ٧٤ مدفعاً، وقد
أهداها السيد سعيد بن سلطان للملك
الإنجليزي ويليام الرابع. والصورة لها راسية في
جزر الهند الغربية بعد أن أعيدت تسميتها
باسم الإمام وغدت من بين قطع الأسطول
البريطاني.

لقد كان استعمال هذه الأجهزة يعطي للإستعمار طابعاً شمولياً وتضليلاً وسيظل المستعمرون (بفتح الميم) غير قادرين لسنوات عديدة على إكتشاف القدرة القمعية المطلقة المختفية بلطف وتهذيب وتمويه خلف هذه الأكمة من المؤسسات والأجهزة، وإن كانوا سيدركون ذلك طال الزمان أم قصر. وتوفر هذه الشبكة وسيلة هيمنة رخيصة تمكن من استخدام العنف والقوة بكفاءة كبيرة وبأرخص ما يكون. وهناك مسألة التنافس مع الإستعماريين الآخرين، فإذا كان البرتغاليون يهددون الهنود باختيار أحد أمرين إما أن تتبنى القرية، المسيحية، بكاملها أو أن تُباد بكاملها، فإن الإنكليز يحققون المطلوب ويزيدون، بطلب السماح بحرية التبشير، ودعم ذلك الطلب بوجود قطعة أو قطعتين من الأسطول تجولان بالقرب. لا بأس من الإنتظار مرة وأخرى، حيث ستوافق السلطات على ذلك إما لحاجتها للمال أو لضغوطات إقتصادية، أو لمواجهة منافس محلي. وما ان تقام تلك المؤسسة حتى تضحي تحت الحماية البريطانية، ويضحى الوكيل السياسي مسؤولاً عن حماية المتمتعين بإمتياز الإنضواء تحت المظلة البريطانية. وإذا كان الفرنسيون يشجعون العُثمانيين على الوقوف بوجه البريطانيين علّهم يحصلون على لقاء مع قوة محلية لها أسطول لا يُعد، وهم في سعيهم يتفاوضون حيناً عن تجارة الرقيق، ويشجعونها أحياناً كثيرة من أجل جلب الرقيق إلى مستعمراتهم في الجزر البعيدة عن البر الأفريقي، وبالتالي عن مصادر الرقيق، فكم سيكون باعثاً على سرور بريطانيا أن تظهر بمظهر القوة التقدمية الواقفة بوجه إضطهاد الإنسان لبني الإنسان والقضاء على هذه اللطخة التي تلوث وجه البشرية منذ الأزل. وهكذا ستحصل بريطانيا على دعم قوي وثابت من الأفارقة، وستكون هناك وسائل بعدم الإصطدام مع العُثمانيين، واستعادتهم للحظيرة الإنجليزية.

ويضاف إلى ذلك طبيعة المسيرة الإنسانية والتي تفترض على المستعمرين

تغيير أساليبهم وتجديدها إذا ما رغبوا في تحقيق المزيد من الهيمنة ،
وتمديدها .

وتعج عُمان منذ أن توجهت إليها بريطانيا بالأمثلة التي أتقنها
الأوروبيون لتحقيق السيطرة على العرب . لقد كانت البداية عبر اتفاقية
دولية موجهة ضد طرف دولي وهم الفرنسيون . ثم تدرجت نحو فرض وكيل
يقم بالأراضي العُمانية ، ثم نحت منحاً متميزاً حينما أراد سعيد بن سلطان
أن يتحالف والإنكليز ضد طرف من المنطقة ، ظناً منه بأن ذلك كان لدرء
أعجل الخطرين . ثم سار التحالف نحو التدخل المباشر في الصيرورة
الإقتصادية للمجتمع العُماني تحت شعارات إنسانية . وأوغلت بريطانيا بعد
وفاة العاهل العُماني الكبير لتجعل من نفسها حامياً ووسيطاً بين الأبناء ،
فهي تستضيف تركي وبرغش أثناء نزاعهما بمواجهة ثويني وماجد . وهناك
في بومبي ، تجري استضافتهما في موقع من أكبر مواقع النفوذ البريطانية ،
حيث تجري عملية التأثير البطيئة والمديدة عبر الحقن بالفعل وبالحديث
وعبر مواجهة النفوذ الإنجليزي ومظاهره متغلغلاً في كافة المسامات .
وسيصعب تصور أن ذلك التقدم البارز يخفي رجعية وإستغلالاً قمارسه
بريطانيا على الشعوب . وبين مظاهر التكريم وحقائق القوة ، وبين ذكريات
سنوات النزاع الماضية ، وإمكانية تسنم مواقع السيطرة في المستقبل ،
يصعب على من يتواجد في مثل تلك المواقع أن يحتفظ بنظرات متوازنة .
وعبر تلك الأساليب غادر البريطانيون أساليب البرتغاليين الفجة الصارخة
وتجربتهم مع محمد يوسف حسن الذي ذهب إلى جاوا للدراسة وعاد سلطاناً
على ممباسا لينقلب عليهم ، وذلك عام ١٦٣١ .

وبين ذلك كله سربت بريطانيا الفكرة التي تقول بأنها تساعد أبناء
المنطقة وتحافظ على السلام بين مناطق الخليج المختلفة ، وهي تساعد دونما
هدف ولا مصلحة سوى تقدم البشر ، واستمرار التجارة ، والحفاظ على

الأرواح البشرية بدل ضياعها في خضم الصراعات الدموية الدائرة « بين
القراصنة والقبائل المتخلفة ، والحكام العرب الضيقي الأفق » .

ولو تمكنت بريطانيا من أن تحرر الرقيق ولا تستعبد الخليج وعُمان .
لكانت لأهدافها الإنسانية شيئاً من « الواقعية والصحة » ، ولكنها
« حررت » الأفارقة واستعبدت العرب وهدمتهم إقتصادياً ، ثم عادت
واستعبدت الإثنيين معاً ، ولم يتمكن العرب والأفارقة من التحرر الفعلي ،
إلا بنفض بريطانيا وكل الأوروبيين معاً . ولو نقلت بريطانيا التقدم العلمي
والتقني ، وسمحت للعرب بتطوير أساطيلهم ، لقبولت دعواتها « بشيء من
التصديق » ، وإن كان بكثير من الشكوك والريبة . ولكن الذي حدث هو
أن الأساطيل العربية قد تخطمت ، وأنهارت حتى يومنا هذا السيطرة التي
احتفظ بها العرب وبشكل شرعي على مياه المحيط الهندي . وحيث أن
الأيام التي كان بإمكان الشعوب أن تحقق شيئاً من العزلة النسبية قد ولّت ،
فلا يجب أن يعني هذا بالمقابل الرضى بهيمنة الأساطيل الأوروبية واعتبار
الترابط العالمي شيئاً يحقق على حساب القوة العربية في تلك المياه .

وحينما قدم عزان بن قيس والخليلي ، فانهما كانا يستشعران ضمناً
بآثار التغلغل البريطاني ، ومخاطر التحالف مع « النصارى » ، ولكن ذلك لم
يكن متبلوراً بشكل كاف . ولقد توصلا إليه ، وشارفا على تحديده في الأيام
الأخيرة ، ومع ذلك فلقد كان الرأي بأن مشاكلهم ومسببات أوضاعهم
الضيقة إنما تعود بسبب أساسي إلى أوضاعهم الداخلية فقط . وقد كانت
مسيرة الإمامة ستضعها بمواجهة اتخاذ قرار حاسم أزاء التدخلات من قبل
بريطانيا وإلى تحديد موقف نهائي : إما السير في مواجهة تلك القوة ومن
منطلق هجومي على شاكلة ما قام به الإمام ناصر بن مرشد والإمام سلطان
بن سيف بمواجهة البرتغاليين أو اختيار طريق آخر يتراوح بين إقامة
العلاقات معهم وبين فقدان القدرة على مواجهتهم ، وهي خيارات لم تسنح

الستان والنصف بتبنيها. ولكن الشيء الذي كان يخيف حكومة الهند ويجعلها تتطير مما حدث، هو تمكن الإمام وضمن الفترة القصيرة من إنشاء حكم قوي يعتمد في قوته على عوامل داخلية، ويستمد ديمومته منها، ويطرح نفسه ممثلاً للقوى النابعة من تلك المنطقة، وبها يستنير لتحديد مواقفه، وبمصالحتها يلتزم. وفي كل ذلك أمور وجوانب لا تستسيغها القوى الأوروبية وترى فيها مقدمات لنتائج لا تتمكن من التنبؤ بها وبآفاقها.

شكّلت تجربة عزان بن قيس، بل وفي الحقيقة شكل نظام الإمامة الإباضية بمجمله، تجربة متميزة وذات فريدة ضمن أساليب الحكم وغط المشاركة الشعبية، وطريقة وضع صيغ الشورى والحكم العادل موضع الحكم. وتشكل هذه التجربة بمجملها أمراً جديراً بالوقوف أمامه وتأمله للإطلاع على عمق التجارب العربية الإسلامية وغناها وتنوعها وثراء جوانبها المختلفة. وحسب معلوماتي المتواضعة، فلا أعلم عن تجربة شبيهة وافق فيها حاكم ضمن مجتمعنا العربي والإسلامي الحديث على الأقل، على أن يقبل تحمل مسؤوليات الحكم ضمن شروط يمثل هذه الشروط، وبالتزامات مشابهة.

ولكي يمكن تقييم مثل هذه البيعة ووضعها في موضعها الصحيح، لا بد من رؤيتها ضمن السياق التاريخي والاجتماعي في عُمان نفسها. لقد عبّر الإسلام عن الحاجة الشاملة لنظام إجتماعي في كل المناطق التي انتشر فيها واستمر، طيلة الأربعة عشر قرناً الماضية. وضمن ذلك الكل برزت المذاهب الإسلامية الكبرى وفروعها لتستجيب بدورها لحاجات كل منطقة وكل مجموعة من بقاع الإسلام الشاسعة. وضمن هذا الكل والأجزاء إنبعث ثراء الاجتهادات وغنى المسارات الفقهية المتزايدة.

ولقد حافظت عُمان على تركيبة إجتماعية ذات عنفوان وتجدد إلى فترة قصيرة من الزمن. وتنتشر بين أرجائها ما يقارب من المائتي قبيلة. وكلما حافظت القبيلة على وجودها كلما كان تأثير الأفراد بمواجهة الزعماء



ثلاثة نماذج من القلاع العُمانية التي شهدت أعنف المعارك في التاريخ الحديث. تبدو في الأعلى قلعة نزوى أكبر القلاع العُمانية، وقلعة العوابي بالقرب من الرستاق، وقلعة الميراني التي أقامها البرتغاليون وهي إحدى قلعتين لا تزالان تشرقان على مسقط.



القبليين مباشراً وملحاً، وكلما أوضحت أية سلطة مركزية ضمن المنطقة نفسها خاضعة لنفوذ الزعماء والشيخ القبليين. ويمكن استيعاب ذلك بشكل واضح إذا ما نظرنا إلى المنطقة المحيطة بعمان، فاليمن بشرطها قد حافظت بدورها وإلى العقود الأخيرة على تركيبة قبلية وضمور في السلطة المركزية إزاء مناطق القبائل ومراكزها وموانئها. إلى الجنوب من عمان تقع مقاطعة ظفار وتوجد بقربها ولكن ضمن حدود اليمن الديمقراطية محافظة المهرة. وتشكل تلك المنطقتان إثنين من أكثر المناطق التي يبرز فيها الطابع القبلي للنظام الاجتماعي. وتكاد تكون سلطة شيخ القبيلة محدودة للغاية، ولا يتميز عن باقي أفراد القبيلة إلا بالشحيع من الإمكانات المادية، وفي المظهر، وإن كان يتميز بقدرته الفذة على القيادة وحل مشاكل قبيلته، وبينما شهدت مناطق جبل عمان الوسطى والشرقية والظاهرة والباطنة تطور سلطة الشيخ، وترابط تلك السلطة مع وجود قدرات مادية تتميز عن بقية قدرات الأفراد نسبياً ضمن شحة الإمكانات العامة.

وهكذا تشكلت قاعدة السلطة في نظام الإمام على قرارات الشراة وقدرتهم على التأثير على المشايخ القبليين. وبالرغم من وجود تمايز بين العلماء أو المطاوعة والقضاة والمتفقهين، وبين الزعماء القبليين إلا أن هناك تلاحم وتداغم بين الفئتين. فالكل ينتمي إلى قبائل معينة وإلى مقاطعات ومدن مع ما تفرضه تلك الأمور من إنشادات والتزامات. وبينما يحرص الزعماء القبليون على تعليم أولادهم على يد العلماء، جمع العديد من الشيخ بين مزية العلم والقيادة القبلية، ويرد مثال صالح بن علي الحارثي كنموذج ملموس في هذا المجال. وهناك التزاوج والمصاهرة، والتي تلعب دورها الذي لا ينكر في تحقيق المزيد من الروابط في مثل هذه المجتمعات. وعلى سبيل المثال، فإن الإمام ناصر بن مرشد كان قد تزوج ابنة الشيخ الشقصي الذي لعب دوراً بارزاً في التمهيد لإمامة ناصر بن مرشد،

ومرّ بنا كيف أن عزّان بن قيس قد تزوج ابنة الخليلي. وحيث أنه ليس هناك من حد فاصل أو نظام وراثة في المواقع الاجتماعية بشكل حاسم فيمكن لأين الشيخ أن يتسّم موقعاً ضمن جماعات المتفقهين، ويمكن للمتفقه أن يتسّم موقعاً قيادياً في المجتمع. ويسهل من ذلك أن التعليم والتأهيل لا يقتصران فقط على الأمور الفقهية وإنما حتى على التدريب العسكري، حيث أن حمل السلاح في عمان وتملك القدرة على استخدامه هو من أوليات الانتقال من مرحلة الطفولة إلى اليقاعة والرجولة. ولربما لم يحمل رجل الدين باستمرار ولكنه يحمله دوماً تردد وقت بروز الحاجة.

وفي ذلك يقول محمد السالمي:

«الشعب كله جند حربي بطبعه لا يبلغ الفرد منهم الحلم حتى يكون قد اتقن عن أبيه العمل بالسلاح لما كانوا عليه قبل ظهور الإمامة من الفتى والسعايات فصار مألوفاً عندهم حمل السلاح ويعدّ ناقصاً من أهمل حمله في كل ساعة اللهم إلا شيخ علم أو أعمى أو عاجز على أن شيخ العلم يحمله عند الحاجة بلا مراجعة»^(٢).

وغت الإمامة كنظام اجتماعي ومنهج مذهبي ضمن المواجهة المستمرة للمركز. ومواجهة المركز كانت تتطلب منهجاً مذهبياً متمكناً ومتكاملاً، وقوة عسكرية قادرة، وموقعاً جغرافياً مؤاتياً، وهذا ما توفر كله في عمان عبر القرون. ولم يواجه هذا الوضع أية تحديات حقيقية حتى الوقت الذي انتقلت عمان من وضعية الطرف إلى تشكيل المركز للإمبراطورية التي قامت بمواجهة البرتغاليين وكحل وحيد لمواجهتهم في الحقيقة. وهنا برزت مسألة الوراثة موضع في البحث. وبالرغم ان الوراثة في الحكم قد وجدت

قبل اليعاربة بعمان إذا جاز لنا أن نعزي ذلك إلى الملوك النباهنة الذين حكموا مناطقاً من البلد لفترة تقرب من خمسة قرون ونحن لا نعلم عنهم سوى القليل ضمن ما يوجد بين أيدينا، إلا أن تلك الفترة تستعاد ضمن التاريخ الإباضي كفترة من الضعف الذي أصاب المذهب والوهن الذي لحق به، وهي فترة وإن اشتملت على النظام الملكي، إلا أنها شهدت إنتخاب الأئمة في بقع أخرى.

لقد ترابط بروز أمر انتخاب الأئمة من عائلة واحدة مع قيام الدولة اليعربية، ولكن بقايا الفترة السابقة استمرت عبر النزاع بين الأخوة حول الأهلية للحكم وأشهره النزاع الذي جرى بين بلعرب بن سلطان بن سيف وسيف بن سلطان بن سيف الأول، وانتهى بتسلم الأخير الإمامة عام ١٦٩٢. ولكن تثبيت النظام الوراثي كان سيظل غير مقبول وإلى فترة طويلة، وبمقدار ما شكلت الحرب الأهلية المديدة التي استمرت بين ١٧١٨ و١٧٤١ التعبير الدموي والعنيف والحاد عن ذلك الرفض، شكلت في الحقيقة المقدمة الطبيعية لقيام النظام الوراثي اللاحق.

وهكذا يمكننا أن نرى قيام نظام البيعة بأنواعها (بيعة إمام الدفاع، وبيعة الإمام الضعيف وغيرها) ضمن هذا السياق مع ما لحقه من تغييرات بعد مجيء اليعاربة. ولم يكن لنظام يمثل هذا التأثير، ويمثل هذا الإيغال التاريخي وباحتفاظه بقدرة على الإستجابة لأوضاع اجتماعية حبلت بمشاكل وقضايا لم تجد إجابة أو حلاً إلا أن يكون الملجأ لأية فترة تضطرم بالصراعات وتتكشف بالاضطراب الإجتماعي وبالإحباط الحضاري بمواجهة القوى الأوروبية التي لم تتورع عن التفتيش عن كل الوسائل لحقن المجتمعات العربية والإسلامية بالهزيمة.

لقد رسم الخليلي رؤيته لطبيعة التسلسل في نظام الحكم، فالعلماء حكام على الملوك والملوك حكام على الرعية، كما سبق الإيضاح. ولقد التزم

عزان بذلك وبالذات فيما يخص باستشارته المستمرة للعلماء في كل صغيرة وكبيرة. لقد استشارهم في تعيين الولاة وفي مسألة المصادرة وإقرار القرض الأهلي، وكان الخليلي يدير الأمور في مسقط. وكان تأثيرهم يصل إلى الأمور الصغيرة، ولكنها المهمة في التعبير عن مجمل الأمر. ويروي السالي قصة ربما أشاعت في الجو بقايا من الفترة الراشدية في التاريخ الإسلامي، وأظهرت بالمقابل شمولية الإلتزام بشروط البيعة. يقول السالي بأن الإمام بعد أن دخل المصنعة في ساحل الباطنة وما اشتمل عليه الدخول من حيازة بعض ما كان صاحب المصنعة يمتلكه، وقد أخذ على أنه تابع لبيت المال، قام الإمام بأخذ بعض آنية من الصفر (النحاس) فأرسل بها إلى بلده الرستاق « ولم يكن ذلك عن مشورة من المسلمين فدخل في نفس المسلمين من ذلك شيء لأن الشرط المتقدم في البيعة يقتضي منه ذلك » (التشديد لي). ويروي السالي أن صالح بن علي دخل على الشيخ سعيد في بيته في مسقط ليلة بعد المغرب فرآه متعباً على الإمام بما صنع، ويقول « قد حملنا ولايته على رقاب العباد، وهذا صنيعه فنخشى أن يسألنا الله عن ذلك ». ويقول السالي بأن صالح قد رد قائلاً « ارفق »، وكان بين بيته وبيت الإمام جدار يقتحم بين السطوح، فأرسلت أمة تستحضر الإمام فاقتحمت الجدار إلى السطح ثم جاء الإمام إليهم من هنالك. وذكر صالح بن علي للإمام ما ذكره الشيخ سعيد، وما وقع في نفوس المسلمين من حمل الأواني من غير مشورة، ويروي بأن عين الإمام دمعت وقال « هذا كله في نفوسكم علي ولا تذكرونه لي لولم يكن لي ديانة في وجوب اتباعكم لكانت مروقي توجب علي ذلك. ما نزلت هذه المنزلة ولا نلت هذه الدرجة إلا بسببكم، ما أخذت الأواني تملكاً وإنما أخذتها لتكون بيت مال بالرستاق نستعين بها على ما يجوز لنا من ذلك وظننت أن حملها لي جائز »، فتهلل وجه الشيخ سروراً بما سمع من إنقياد الإمام وحسن نيته وأتموا له ما صنع وعذروه بالتأويل^(٣).

تعطي هذه الحادثة صورة واضحة لطبيعة العلاقة القائمة ولسيرورة الأمر أثناء الفترة التي مرت بين ٦٨ - ١٨٧١. وتشكل هي ومجمل التجربة مرجعاً هاماً في التاريخ العربي الإسلامي للأساليب التي يمكن أن تستنبط من ذلك التاريخ لتشكيل منهجاً للعلاقة بين المجتمع والسلطة الحاكمة، دون فصلها عن السياق الذي أتت فيه ودون أن تقصر على واقع جديد ومتغير.

قامت إمامة عزان بن قيس على وضعية التجزئة التي فرضتها بريطانيا والقوى الأوروبية؛ ليست على المنطقة العربية عامة، وإنما على عُمان نفسها. فلقد جهّز الإمام ناصر بن مرشد «جيشاً هاماً، وأمر فيه علي بن أحمد بن عُثمان النزوي وجعله مقدماً... فقام الجيش على أقدامه يقطع السباسب والآثار، ويجتاز الصياخد ويجاوز القفار مستقبلاً قاصداً بمشيئة الله تعالى بلدة جلفار... وجعل الإمام بحصن الصير من جنبه والياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر»^(٤). وقام الإمام اليعربي الرابع بمد السيطرة إلى البحرين وفي ذلك يقول ابن رزيق:

حوى البحرين منهم واستكانوا له وفرت نسلوهم الملا^(٥)

ولقد سيطر عليها سلطان بن أحمد وسعيد بن سلطان حاول السيطرة عليها أيضاً في ١٨١٨ و ١٨٢٨. لقد وجد عزان نفسه مضطراً إلى أن يأخذ بالإعتبار الوجود البريطاني في السواحل العُمانية المُطلّة على الخليج العربي وفي بقية الإمارات. وخسر أثناء حكمه سيطرته على السواحل الفارسية حيث تقوم الإمارات العربية هناك واهتزت سيطرة عُمان على مكران. وسيضطر من يأتي بعده إلى الإنكفاء في الداخل واعتبار تلك المنطقة هي مجال الإمامة الطبيعي بمواجهة الساحل، مما سيفتح الباب أمام تسمية مسقط وعُمان التي لن تُنهي إلا في عام ١٩٧٠.

وكانت إنطلاخته المفروضة عليه تلك واحدة من العوامل التي وضعت حدوداً لتجربته وامتدادها منذ البدء، وهو في ذلك يشبه في موقفه العديد

من القوى العربية التي وقفت على الأرض التجزئية، بالرغم منها. فلا شيء يقاشر والخط الأوروبي الإستعماري مثل أن تجد الأطراف نفسها في مواجهة تناحرية مع المركز، أو مفتقدة للحد الأدنى من التنسيق معه. وبينما تدفع الأوضاع العربية بحكم ترابطها وتفاعلها كل القوى إلى تجاوز «الحدود» والإندفاع نحو الضم والتوحيد، ستجد أية قوة لا تعمل حسب القانون نفسها أمام خيارات تزيد من مأزقها ومن الطرق المسدودة التي ستواجهها. فستجد للمحافظة على مواقعها تناقصاً في استقطاب القوى المحلية وستفقد عمقها إلى الداخل. وتزايد مثل هذه الأوضاع في ظل إنعدام وجود قوة عربية مركزية تمتلك الأفق لتحقيق أهدافها حتى باصطدامها مع القوى الأوروبية. وهكذا وجد سلطان بن أحمد نفسه ووجد ابنه سعيد بن سلطان، محاصراً ومطوقاً من قوى عربية، وكانت القوى الأوروبية قد أخذت تطوّق مجهوداتها باتجاه تجاوز الحدود وأظهرت نفسها حليفاً ممكناً لتحقيق ما كانت تقوم استراتيجيتها بالأساس على منعه.

وسبقت الإشارة إلى النتائج التي نتجت عن تلك السياسة من تقسيم وتهشيم ليس لوحدة إمبراطورية عربية إسلامية، إنما إلى إيجاد أسافين لا تزال قائمة في العلاقات بين عرب المنطقة أنفسهم وبين العرب وجيرانهم من أفارقة وغيرهم.

وفي النهاية لا يسعنا إلا الإشارة إلى ما يطرحه بعض الكتاب الأوروبيين في تقسيمهم الاتجاهات والمسارات التي جرت فيها الأمور في عُمان، وأشهرهم في ذلك هو لاندن، الذي تحدث عن «المحافظون والمعتدلون». وما نشير إليه هنا على وجه التحديد استخدامه للعلاقة مع الأوروبيين وبريطانيا على وجه التحديد كمقياس في ذلك، في الظاهر تارة وفي الباطن تارة أخرى. وهو ينطلق في مقياسه بالطبع من الإنطلاق بأن

أوروبا تمثل التقدم والحضارة والعلم ، ولذلك فمن كان متحالفاً معها أو لا يجد في ذلك تناقضاً حاداً كان متماشياً بالتالي مع التقدم وما كان لا ينطلق في ذلك نفس المنطلق يعتبر محافظاً . وحتى إذا اتفقنا على أن بريطانيا في القرن الماضي كانت مقراً للتقدم وللعلاقات الإنتاجية الرأسمالية المتطورة ومقراً للاكتشافات العلمية وموقعاً لأحدث المصانع وأكثر الأسلحة تطوراً ، فلا ريب أنه يستوقفنا أنه بينما شهد الداخل في أوروبا مثل هذه الأمور ، فإن سياسة أوروبا الخارجية لم تكن بالضرورة على نفس الشاكلة إن لم تكن بالعكس ، حيث لم تؤد هيمنتها في منطقتنا إلا إلى تراجع دورنا العالمي . ولربما تقدمنا قليلاً ، وهذا إذا ما استبعدنا التخلف ، ولكن الأوروبيين حافظوا دوماً على الفجوة التي بيننا وبينهم بل وقدمونا بما يدخل ضمن تصورهم العام للتقدم المنطلق من مصلحتهم .

وهم في ذلك يستخدمون أفضل الدعوات وأشرف المبادئ لتحقيق أكثر النتائج أضراراً بالعرب وبمسار تقدمهم . هكذا حُطم القواسم وقوتهم البحرية تحت شعار « محاربة القرصنة » ، وحُطم الأسطول العُماني وسُمت العلاقات الأفريقية العربية باستخدام شعار محاربة الرق ، وعُزلت عُمان وإمارات الخليج العربي لقرن ونصف من الزمن في مواجهة أية متركة توحيدية عربية تحت راية الدفاع عن استقلالها .

وعُمان بكونها جزء من المنطقة العربية الواقعة في بقعة متوسطة من العالم كانت وستظل ذات أهمية بالنسبة للدول الأجنبية ، ويزيد من ذلك وقوعها على التخوم . وهكذا لم يعد ممكناً رؤية أية أحداث استراتيجية بها دون أن يؤخذ في الاعتبار عامل القوى الأجنبية والأوروبية منها على وجه الخصوص . ولم يعد في الإمكان محاولة الإرتكاز على الإرث التاريخي المتراكم لمواجهة معضلات العصر دون أن تؤخذ في الاعتبار متغيرات العصر بمشكلاته الجديدة ، وطبيعته المختلفة المظهر والجوهر عن القرون الخوالي .

وإذا لم يؤخذ كل ذلك في الاعتبار فستأتي أية استجابة قاصرة عن الإجابة على أسئلة الحاضر ومتجاهلة لواقع وجود الأوروبيين وأطماعهم ونظراتهم المحددة تجاه هذه المنطقة . وعُمان في ذلك تُكشف واقع العرب وهمومهم في محاولتهم المديدة من أجل استعادة تجربة حدثت قبل أربعة عشر قرناً ، فوضعت العرب في موقعهم المناسب لواقعهم الفعلي وطموحاتهم .

وتبقى لأحداث ٦٨ - ١٨٧١ أهميتها المتجددة ، وتبقى لممارستها فضل الريادة ، وميزة معاناة صعوباتها .

هوامش

- (١) ادوار سعيد، الإستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء. ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١، ص ١٢٤.
- (٢) نهضة الأعيان، ص ٦٣.
- (٣) تحفة الأعيان، ص ٢٠٢.
- (٤) عبدالله بن خلفان بن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، (مؤلف ١٦٤٠ م تقريباً). تحقيق عبدالمجيد القيسي، عُمان: وزارة التراث القومي، ١٩٧٧، ص ٤٦.
- (٥) الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٨٢.

المراجع العربية

- (١) البوسعيد ، سالة بنت السيد سعيد بن سلطان ، مذكرات أميرة عربية ، نشرت المذكرات بالألمانية عام ١٨٨٦ وتُرجمت إلى الإنكليزية مرتين ١٨٨٨ و ١٩٠٥ ، والأخيرة أصل الترجمة للنسخة العربية . ترجمة : عبدالمجيد حبيب القيسي . أبو ظبي ، ١٩٧٤ .
- (٢) بيدويل ، روبين ، عُمان في صفحات التاريخ . ترجمة محمد أمين عبدالله . عُمان : وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٨٠ .
- (٣) هولى ، دونالد ، عُمان ونهضتها الحديثة . لندن : مؤسسة ستاسي الدولية ، ل . ت . ولكنه بعد السبعينات .
- (٤) كيلي ، جون ، ب ، بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠ . ترجمة محمد أمين عبدالله . عُمان : وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٧٩ .
- (٥) الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية . بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، ١٩٧١ .
- (٦) لاندن ، روبرت جيران ، عُمان منذ ١٨٥٦ . ترجمة محمد أمين عبدالله . ل . م . صحافيا ، ١٩٧٠ . والكتاب الإنكليزي صدر عام ١٩٦٦ .
- (٧) لورير ، ج . ج . ، دليل الخليج ، ج ٢ . طبعة جديدة معدلة ومنقحة أعدها قسم الترجمة بمكتب أمير دولة قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني .
- (٨) المعولي ، أبو سليمان بن محمد بن عامر بن راشد ، قصص وأخبار جرت في عُمان . ألف بتاريخ غير معروف ، ولكنه قبل ١٩١٤ . تحقيق عبد المنعم عامر . عُمان : وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٧٩ .

- (٩) د . معروف ، نايف محمود ، الخوارج في العصر الأموي . رسالة دكتوراه ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٧ .
- (١٠) المرهوي ، عامر علي عُمر ، عُمان قبل وبعد الإسلام . محاضرة أقيمت بمهرجان العلم الإسلامي بلندن (نيسان - حزيران ١٩٧٦) .
عُمان : وزارة التراث القومي والثقافة ، تشرين الأول ، ١٩٨٠ .
- (١١) د . متولي ، محمد ، حوض الخليج العربي . جزئين ، القاهرة : مكتبة الأنجلو - المصرية ، ١٩٧٥ . ط ٢ .
- (١٢) المتحف العُماني دليل موجز للزائرين « ، عُمان : وزارة الإعلام والثقافة ، ١٩٧٧ .
- (١٣) السالمي ، أي بشير محمد شيبه بن نور الدين عبدالله بن . حميد . نهضة الأعيان بحرية عُمان . القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٣٨٠ هـ . (تاريخ انتهاء التأليف منه) .
- (١٤) السالمي ، الإمام نور الدين عبدالله بن حميد السالمي . تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان . قام بتصحيحه والتعليق عليه ، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الجزائري الميزابي . القاهرة : مطابع دار الكتاب العربي بمصر : ١٩٦١ م . واستُخدمت في البحث نسخة أخرى طبع مطبعة الإمام ، ١٣ شارع قرقول المنشية بالقلعة بمصر .
- (١٥) السيبي ، سالم بن حود ، إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ، صقور البحر العُماني . دمشق : المطبعة التعاونية ، ١٩٧٦ .
- (١٦) السيار ، عائشة علي ، دولة اليعاربة في عُمان وشرق افريقيا . بيروت : دار القدس ، ١٩٧٥ .
- (١٧) سعيد ، ادوارد ، الإستشراق : المعرفة ، السلطة ، الإنشاء . ترجمة كمال أبو ديب ، بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨١ .
- (١٨) د . ستيفنس ريتشارد ، « استعراض لبداية العلاقة الأمريكية التجارية والقنصلية مع سلطنة عُمان » (١٨٣٣ - ١٨٥٦) ، دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ١١ ، السنة الثالثة ، ١٩٧٧ .
الكويت ، ص ١٢١ - ١٣٦ .

المراجع الأجنبية

- (1) Bibby Geoffrey, *Looking for Dilmun*. N.P. Library Edition, 1973.
- (2) *Oman a Seafaring Nation*. Oman: Ministry of information and culture, 1979.
- (3) Peterson, J.E., *Oman in the Twentieth Century*. London: Groom Helm, 1978.
- (4) Phillips, Wendell, *Oman: a History*. Lebanon: Librairie du Liban, 1971.
- (5) Searle, Pauline, *Dawn Over Oman*. London: George Allen and Unwin, 1979.
- (6) Skeet, Ian, *Muscat and Oman*. London: Faber and Faber, 1974.
- (7) Townsend, John, *Oman*. London: Croom Helm, 1977.
- (8) Trade and Travel Publications, *The Gulf Handbook*, 3rd edition. Independent Team of Arabists and Journalists. England: Bath, 1979.
- (9) Wilkinson, J.C. *Water and Tribal Settlement in South-East Arabia*. Oxford: Clarendon Press, 1977.

(١٩) د. العاني، عبد الرحمن عبد الكريم، عُمان في العصور الإسلامية الأولى، ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي وفي الملاحة والتجارة الإسلامية. بغداد، رسالة دكتوراه، دار الحرية، ١٩٧٦ - ١٩٧٧.

(٢٠) د. عاشور، سعيد عبد الفتاح (محقق)، تاريخ أهل عُمان (مجهول المؤلف)، ربما ألف عام ١٧٥١، عُمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٠.

(٢١) د. عيسى، محمود خيرى (إشراف على الدراسة)، العلاقات العربية الأفريقية «دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة». القاهرة: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٧٨.

(٢٢) د. العقاد، صلاح، التيارات السياسية في الخليج العربي. القاهرة: مكتبة الأنجلو - المصرية، ١٩٦٥.

(٢٣) د. قاسم، جمال زكريا، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤. الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٧٤، الطبعة الثانية.

(٢٤) قيصر، عبد الله بن خلفان، سيرة الإمام ناصر بن مرشد (مؤلف عام ١٦٤٠ تقريباً)، تحقيق عبد المجيد حبيب القيسي. عُمان: وزارة التراث القومي، ١٩٧٧.

(٢٥) رزيق، حميد بن محمد، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين، تحقيق عبد المنعم عامر ود. محمد مرسي عبدالله (ألف الكتاب عام ١٢٧٤ هـ)، عُمان: وزارة التراث القومي، ١٩٧٧.

(٢٦) الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان (١٢٧٤ هـ)، تحقيق عبد المنعم عامر. عُمان: وزارة التراث القومي، ١٩٧٨.

(٢٧) شهاب، حسن صالح، أضواء على تاريخ اليمن البحري. عدن: لجنة نشر الكتاب اليمني، ١٩٧٧.

كتب صدرت عن دار الحداثة

السلسلة التاريخية

- ١ - تاريخ العرب في الإسلام - د. جواد علي ٢٠ ل.ل.
- ٢ - تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام
محمد علي نصر الله ٣٨ ل.ل.
- ٣ - أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية
برنارد لويس - ترجمة حكمت تلحوق ١٥ ل.ل.
- ٤ - تاريخ الجزائر الحديث
د. عبد القادر جفول - ترجمة د. فيصل عباس
مراجعة د. خليل أحمد خليل ٢٥ ل.ل.
- ٥ - تاريخ العرب الاجتماعي ، تحول التكوين المصري من
النمط الآسيوي إلى النمط الرأسمالي
أحمد صادق سعد ٣٠ ل.ل.
- ٦ - في ضوء النمط الآسيوي للنتاج : نشأة التكوين المصري
أحمد صادق سعد ١٣ ل.ل.
- ٧ - علم التاريخ . ج. مرستو
ترجمة عبد الحميد العبادي ٨ ل.ل.
- ٨ - الجغرافيا توجه التاريخ
إيست جوردن - ترجمة جمال الدين الدناصوري ١٧ ل.ل.
- ٩ - مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط
د. عبد القادر جفول - ترجمة : فضيلة الحكيم ١٢ ل.ل.
- ٩ - الدولة المملوكية - التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري
د. إنطوان خليل ضومط ٢٨ ل.ل.
- ١١ - قراءة في وثائق الوكالة اليهودية في فلسطين - تقديم بو علي
ياسين ١٦ ل.ل.
- ١٢ - تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق والخليج
العربي د. حسين علي المسري ٣٥ ل.ل.
- ١٣ - جوانب من التاريخ العربي - الإسلامي في ظل الهيمنة الأوروبية
أحمد عبيدلي ١٧ ل.ل.

١٤ - سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية

والتاريخية

بازيلي ترجمة : د. يسر جابر - مراجعة : د. منذر جابر .

- ١٥ - الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، سياسة التفكيك الاقتصادي
الاجتماعي ١٨٣٠ - ١٩٦٠ د. عدي الهواري ٢٥ ل.ل.
- ١٦ - علاقة التاريخ الرأسمالي بالفكر الايديولوجي العربي
سمير أمين ٨ ل.ل.
- ١٧ - الفتوحات الإسلامية في فرنسا وسويسرا في القرن الثاني والثالث
والرابع الهجري - ج. رينو - ترجمة وتقديم د. اسماعيل
العربي ٨ ل.ل.
- ١٨ - السياسة الدولية في الشرق العربي ١ / ٥ - د. عادل اسماعيل

سلسلة العلوم الاجتماعية

- ١ - الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن
خلدون - د. عبد القادر جفول
ترجمة : د. فيصل عباس - مراجعة د. خليل أحمد خليل .. ١٤ ل.ل.
- ٢ - الأساطير والخرافات عند العرب - محمد عبد المعيد خان ١٢ ل.ل.
- ٣ - المادية الجدلية والتحليل النفسي - فيلهلم رايش ترجمة بو علي
ياسين ٦ ل.ل.
- ٤ - استئناف البدء - محاولات في العلاقة ما بين الفلسفة والتاريخ
د. وضاح شرارة ٢٦ ل.ل.
- ٥ - القرية وسوسيولوجيا الانتقال إلى السوق فرج الله صالح ديب ٩ ل.ل.
- ٦ - التغيير الاجتماعي وحركات المودة - د. حاتم الكمي ٢٠ ل.ل.
- ٧ - السوسيولوجيا والتاريخ - ل. م. درويشيفا ١٠ ل.ل.
- ٨ - المدرستان الاقتصادية والميكانيكية في علم الاجتماع
سوروكن ترجمة : د. حاتم الكمي ١٣ ل.ل.
- ٩ - مناهج البحث العلمي - كورغانوف ترجمة : د. علي مقلد ١٠ ل.ل.

السلسلة الفلسفية

- ١ - الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية جرجي زيدان ١٥ ل.ل.
- ٢ - الفقه والسياسة - د. سعيد بن سعيد ١٤ ل.ل.

- ٣ - العقل والدين ولیم جیمس - ترجمة : محمود حب الله ١٥ ل.ل.
- ٤ - مدخل إلى تاريخ الفكر العربي - د. افرام البعلبكي ٤٠ ل.ل.
- ٥ - الماركسية والتراث العربي - الاسلامي
مناقشة لأعمال حسين مروة والطيب تيزيني
د. نايف بلوز - د. توفيق سلوم ، بو علي ياسين ، نبيل
سليمان ، علي حرب ، د. رضوان السيد ، فرج الله صالح
ديب ٣٠ ل.ل.
- ٦ - ماهي الاستمولوجيا ؟ - د. محمد وقيدى ٢٠ ل.ل.

السلسلة الاقتصادية

- ١ - الاقتصاد السياسي
مدخل للدراسات الاقتصادية - د. فتح الله ولعلو
٢ - الاقتصاد السياسي - توزيع المداخل ، النقود والائتمان
د. فتح الله ولعلو
٣ - الاقتصاد العربي والمجموعة الأوروبية - د. فتح الله ولعلو ..
٤ - قانون القيمة والمادية التاريخية
سمير أمين - ترجمة : صلاح داغر ١٢ ل.ل.
- ٥ - أزمة الامبريالية : أزمة بنوية
سمير أمين - ترجمة : صلاح داغر ٥ ل.ل.
- ٦ - الاستخراج لأحكام الخراج
للإمام الحافظ أبي الفرج بن رجب الحنبلي
مراجعة : عبد الله الصديق ١٠ ل.ل.
- ٧ - مشكلات الاقتصاد الدولي المعاصر - د. حمدي الصباخي ١٢ ل.ل.
- ٨ - في التعريف بالنقود - د. حمدي الصباخي ١٢ ل.ل.
- ٩ - مدخل إلى الاقتصاد السياسي
د. عبد اللطيف بن اشتبو
.....

السلسلة العلمية

- ١ - مبادئ الطاقة الشمسية
د. سهيل فاضل - د. الياس الكبه ٢٠ ل.ل.
- ٢ - الكيمياء العضوية - د. نعمان النعيمي

3480

هذا الكتاب

لقد كتب الكثير عن جوانب التاريخ العربي الاسلامي في بقاعه المختلفة ، ولكن الكثير منه ما زال لم يكتب ، ولقد ركزت الأضواء كثيراً على مناطق الجزيرة العربية ، وعلى نواحي تاريخها المتنوعة ، ولكن بقيت نواح لا تزال بحاجة لمزيد من الأضواء . وجزيرة العرب موقعها المتميز والمتفرد في الوجدان العربي ، وفي الحاضر الراهن . فبين جنباتها ولدت القبائل العربية وتفرعت ، ومع ازدهارها ابان العصور السابقة ازدهر العرب وبنوا الحضارات القديمة ، ومع موجات الجفاف التي شهدتها أراضيها المتراصة تصلبوا وانغرسوا بين الكشبان وفي الواحات وعلى امتداد الصحارى اللامتناهية ، ومع مجيء الدعوة الاسلامية تعملق تاريخهم وطبع حيزاً مكانياً وزمانياً واسعاً ضمن التاريخ الإنساني . ومجيء العصور الحديثة وباكتشاف النفط أضيف إلى تلك الأبعاد بعد جديد لم يكن من الممكن تجاهله وسط الصراعات التي عرفها هذا الجزء من العالم .